الفقي مصباح مؤذن الفجر
في مستشفى المجانين

رواية سياسية اجتماعية هادفة

د. عبد الوهاب الزنتاني



الفقى مصباح

مؤذن الفجر فى مستشفى المجانين

(رواية سياسية اجتماعية)

تأليف

د. عبد الوهاب محمد الزنتانى



الـــكـــتـــاب : الفتى مصباح مؤذن الفجر في مستشفى المجانين

المؤلـــــــف : عبد الوهاب محمد الزنتاني

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٥/١٦٥٠٠

تـاريـخ النشـر : ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 -857 - 4

الـنـــاشـــر : دار غـريـب لـلـطـبـاعـة والـنشـر والـتـوزيـع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

الـتـــوزيـــع : دار غريب ٣.١ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء ..

إلى روح ابنى الذى كان عزيزا يحمل اسم عزيز (جمال) ،،
ابنى الذى اعـدته واردته أن يكون من جيل مسـتقـبل ليبـيا
الزاهر المتقدم القـائم على الحرية والعدل، ولكنه انتقل إلى
جوار ربه فجأة فى يوم اختلط فيه فرحنا بحزننا ذلك هو يوم:
(١٢/ ١٠/ ١٩٩٤) وكـانت ارادة الله فـوق وقـبل كل شيْ،
﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾
(سورة البقرة : ٤٥) صدق الله العظيم
﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي
الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٤) صدق الله العظيم
اللهم إنا من الشـاكـرين . . . وانا لله وأنا إليـه راجعـون ،
والحمد لله . .

بلدة الزنتان فى شهر رمضان المبارك ١٤١٥

الموافق ٢٣ يوليو ١٩٩٥

اعتـذار..

اعتذر للقارئ الكريم إذا كان قد اعـترى كتابتى بعض الحزن ذلك أن الإنسـان ضعـيف فى كثير من الحـالات التى يمر بها فى حياته ، وقبل أن تبدأ الرواية احـسـت برغبة فى الترويح على النفس ببضع ابيات من الشعـر العربى احفظها وأن كنت لا أتذكر قائلها :

يقول :

(الليل من حـولى هدوء قاتل   والذكريات تمور فى وجدانى
ويهد فى ألمى فـانشد راحتى   فى بـضع آيات مـن القـرآن
والنفـس بين جوانحى شفافته   دب الخشـوع بها فهز كـيانى
قـد عـشـت اؤمن بالآلة ولم   اذق إلا اخـيـرا لذة الإيمـان)

هكذا هى الحيـاة متعكم الله الإيمان . . ولقد كـتبت الرواية سنة ١٩٩٥ ولم تتفح فرصة نشرها الا هذه السنة ٢٠٠٥ .

تنبيـــــه ..

على الرغم من اننى ذكـرت أن أحداث الرواية حـقيـقيـة فى الغـالب فإننى أود أن انبـه إلى أن الأسمـاء التى ذكرتهـا لا أقصـد بها شخص مـعين وأن تطابقت مع بعض الأسـماء، وانما هى تعنى كل اسم حامله استغل أو ارتشى أو سرق فى أى وقت وأى مكان أو وظيفة أو منصب . . .

وأنا أعلم أن هناك اياد نظـيفـة ونفـوس طاهرة واناس أمناء، ولأننى اتمنى أن يكون أهل بـلادي جمـيعـاً اطهـارا انقيـاء صادقين (كما كان الأوائل) فربمـا كانت كلماتى قاسية، وما اقصده وارمى إليه هو خدمة هذا البلد العزيز الذى انتمى إليه دما ولحما وقلبا منذ الأجداد الأوائـل افاء الله عليهم برحمته الواسعة أنه سميع عليم . . .

والله الموفق وهو وراء القصد ، وانما الاعمال بالنيات . . .



(١)

بعـد أن أدار الفقى مـصبـاح مؤشـر الراديو ليوقف سـيل الكلمـات المدوية التى طرقت اذنيـه كنشيـد وطنى طال انتظاره وزغرودة فـرح انطلقت فى صبـاح يوم باكر، تراءت له الأشـياء وردية زاهيـة، ها قـد تحـقق الأمل الكبـيـر وانتـصـر العـرب والمسلمون على الكفار واعـوانهم، انتصر راديو صوت العرب، راديو القـاهرة على راديو لندن، أو ربما يمكن أن يـقالَ انتـصر الفقـى مصبـاح على الشيخ على، ولـقد تداعت كل المـشاريع الاستعـمارية دفعة واحدة، من سـيكـس بيكو إلى ايزنهاور وملئ الفراغ . .

نام الفقى مـصبـاح ملئ جفنيه عـلى جنب واحد دون أن يقلقه شـئ ولا حتى غيـرّ الجانب الذى ينام عليـه تلك الليلة، ولابد أن الجـــسم الذى بداخـله قلب طاهر لا يـرتاح إلا على أرض حرة، حقا لقد تحرر تراب الوطن.

فماذا يكون الحال بالنسبة للشيخ على . .؟

ترى هل سيستبدل قلبـه بآخر جديد ويغير جلده ثم يرتدى أثوابا أخرى ويظهر بمظهر ثان؟ . .

وإذا ما فعل فهل سيجد مكانا فى المجتمع الجديد؟

المجتمع الشاب المغسول بماء الورد.

المجتمع الذى لم يعشق امريكا والغرب ولا هجر الأرض الطيبة . .

المجتمع الذى ما وضعت فى فمه ملاعق الذهب وملأت جيوبه الدولارات.

ولا كان يعيش من فضلات القواعد العسكرية الأجنبية وشركات النفط . .

نام الفقى مصباح وقد انزاح من على كاهله حمل ثقيل كأنه حجر سيزيف، ذلك أن مسيرة الخير والعطاء قد بدأت وقد ألتقت الثورتان على أرض ليبيا . . ثورة ٢٣ يوليو وثورة المليون شهيد لتتعانقا على أرض ثورة الفاتح من سبتمبر ولابد أن كل حجر على جانبى ذلك الطريق المترب الضيق الذى يمر عبر المقبرة القديمة من بيت الفقى مصباح إلى الجامع العتيق مازال يختزن كلمات الفقى التى كان يرددها كل يوم عشر مرات، فهو يدعو الله لنصرة العرب والمسلمين فى الفجر عندما يذهب للآذان وتأدية صلاة الفجر وكذلك وهو عائد وهكذا يفعل أثناء الظهر والعصر والمغرب والعشاء . .

لم ينقطع يوما واحدا عن الآذان وأداء الصلاة حاضرا فى وقتها يلهج لسانه فى كل مشية وعودة داعيا الله أن ينصر العرب والمسلمين وأن يحقق امنياته، كان دائما يراوده هاجس الثورة فى ليبيا، لابد أن تتغير الأمور والأحوال ولابد أن ينتصر الحق، هناك فى القاهرة ثورة وعلى ضفاف السويس جهاد وعلى الجانب الآخر تتأجج المعارك ويتسابق الشهداء، أنها ثورة المليون شهيد على ذرى جبال الأوراس وفى كل مكان على أرض الجزائر المجاهدة، ولا يعقل أن يبقى الأجنبى هانئاً فى ليبيا وبين موطن الثورتين .

لقد كانت ليبيا أرضا مباحة للأجانب والسماسرة والمقاولون وتجار المضاربات، قواعد عسكرية وشركات نفط يعمل فيها الآلاف من عملاء المخابرات والمرتزقة الذين يخططون للانقلابات والحروب الأهلية والإطاحة بالوطنيين واستغلال الشعوب وغرس العملاء، وقد آن الأوان لتحرير الأرض المباحة وطرد العملاء والمرتزقة، ولابد للثورة الشابة وأن تستفيد من خبرة ونضالات أحرار العرب فى كل مكان، ولقد رفعت شعارات الثورة العربية الأم وبالتالى فهى رافد من روافد ثورة جمال عبدالناصر فى مصر . .

الفقى مصبـاح يعانق الوطن كله، يريد أن يقّبل كل الناس ولا يريد أن يـسـمع غيـر الآذان وصوت الثـورة، اناشيـدها التى تدغدغ الوجدان وتطرب القلب، وهو لا يريد شيـئا أكثر من أن يقّـبل الناس ويهـتف للثـورة، ذلك أن الـقلب الملئ بالإيمـان وبالأمل لا يكره ولا يحـقد، ما كـان بالأمس قد انتـهى، هكذا يقول، وهو يعلم أن المـاء لا ينساب إلى أعلى تلقـائيا، لا شئ يعـود إلى الخلف بنفس الطريقـة فقـد تحـركت عجلة التـاريخ متقدمة، والمخطيـئون ربما ادركوا أنهم على خطأ والثورة تطّهر القلوب، يتـذكر ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد : ١١) والثـورة هى تغيـير مـا بأنفس الناس، والحلم الجميل لا يهدد الجسم ولا يقلق الفكر.

وهكذا طاف الفـقى مصـباح بـفكره اجواء الوطن العـربى واستعرض تاريخـه، فإذا قامت الثورة فى ليبيـا فهذا يعني تظافر الجهود لأن الثورة فى ليبيا تعنى وصل المشرق العربى بالمغرب العربى برباط قـوى متين، أنهـا تعنى الوحدة التى تكوّن رأسـها مصر، الوحدة التـى يريدها وينشدها كل العرب، كل من يؤمن بالأمة العربيـة الواحدة فى الوطن الواحد والوحدة الـعربية التى

انتصــر بها العرب عندمــا حملوا رســالة الإسلام إلى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية وأســوا امبراطورية قوية وبنوا حضارة رائعة وعلم فائق فى كل مكان، الوحدة التى انتصر بها صلاح الدين الأيوبى فى حطين عندما اجـتمعت كلمة العرب وجـهود العرب فى كل من مصـر والشام، الوحدة التي هزم بهـا العرب حملة الفـرنجه التى قادها لويـس التـاسع وهزموا التار وغيـرهم من الغزاة، بل أنها الوحدة التى نصرت ابن عباد فى الأندلس على قائد الأفرنج ملك قشتـاله ألفونـسو،الوحدة التى تمـثلت فى حملة طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين، وهكذا كان الفقى مصباح كطائر خرج من قفصه وصار يرفرف، أصبح قلبه كطفل عند الولادة، نظيف أبيض لم يكتب فـيه شيئـا رغم كل الذى حدث، انتـقل تفكيره أيضا بسرعة إلى حيث يوجد جمـال عبد الناصر ربما ليـسمع منه ماذا يريد من الثـورة الشابة وكيف يرى مسـتقبل الأمة العـربية، وربما ليبلغه رسالة ثورة ، رسالة الحـرية والاشتراكية والوحدة، وهى نفس رسالة جمال عبد الناصر، وكأنما كان يريد أن يـسمع وشوشات مـياه النيل الخالد، ويرى منشيـة البكرى وذلك البيت المتـواضع الذى تسكنه سيدة كـانت دائما كالقمـر الذى تحوطه السحب يبث نوره فى هدوء، كان يحلّق فوق مدن السويـس كأنه

يريد أن يبلغ أرواح شهداء الكفاح بأن الانجليز الذين قتلوهم سوف يطردون من ليبيا كما طردوا من مصر، وليتأمل تلك المدن التى هدمتها طائرات العدوان الغاشم سنة ١٩٥٦م وكيف أنها عمّرت من جديد بتظافر جهود العرب، ليرى مدرسة بحر البقر وهى شاهد على غطرسة اسرائيل وطول يدها ووحشيتها عندما كان العرب متفرقون وقتذاك، ليرى الأزهر الشريف وتلك الجموع الغفيرة من رجاله الذين كانوا دائماً سبّاقين إلى مقاومة العدوان والدفاع عن الحق، ذلك الجامع الذى وقف على منبره جمال عبد الناصر ليعلن، حنحارب، وكان الفقى مصباح فى طريقه إلى هناك قد مر بمنطقة (المخيلى[1]) ليسمع صهيل جياد عمر المختار وأصوات المدافع ورائحة البارود من فوق قمة ذلك الجبل. كان يرى صفوف أولئك الناس الذين جاءت بهم القوات الغازية الإيطالية بالقوة ليروا عمر المختار مكبلا بسلاسل الحديد، تذّكر المشنقة التى تدلى منها الشهيد عمر المختار فى ساحة بلدة سلوق إمام خيلاء الضباط الإيطاليون الذين أرادوا إرهاب كل الليبيين بذلك العمل الشنيع وليؤكدوا أن لا سلطة فوق سلطة إيطاليا ولا ثورة بعد عمر المختار، وكان قد تذكر قبلئذ الشيخ سالم بن عبد النبى وعملية احتلال وتحرير (قارة

سبهـا) بالجنوب الليبى، وهنا يرفع يديه إلى السماء ليـقرأ قوله تعالى ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٨) .

نعم الموت حق، ومن لا يستـجيب لنداء الحق، للثورة، يكون من أولئـك الذين تتـحـرك فى بطونـهم الأمـوال الحـرام كـالأفاعى تلتف حـول بعـضهـا، وفى هذا البلد مـازال الناس إطهارا، فـلا غش ولا رشوة أو سمســرة ولا جرى وراء الكسب إلا ما ندر وغـالبا بالحـلال، (تجارة أو زراعـة أو وراثة) ولكن كما قـال الله فى كتابة الكريم ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٣٢) .

ها قد تجمّعت معـارك الوطن، المخيلى وجليانه وتاقرفت والقـرضابيـة والشاطئ وبوملـيانه والجـوش ومرسـيط والوديان والكردون والقارة والسـلامات والهانى الخ، تجمّـعت وارعدت وابرقت لتهطل مطر غزير فى الفاتح من سبتمبر، كان رعدها فى القاهرة وبريقها فى الاوراس واشابيـبها فى طرابلس، تلك عبرة التاريـخ، دولة الظلم لا تدوم وعلى الباغى تدور الدوائـر، وأمة القرآن لا يمكن أن تبـقى متفرقـة ضعيفـة، ولن تكون نضالات

العرب إلا مشاعل تشئ الطريق أبداً، أن قول خليفة رسول الله عمر (متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) تبقى أبد الدهر أعظم مقولات الحرية والعدل وحقوق الإنسان، نعم أن الثورة قوة، والوحدة عقل وتبصر، وعندما يجتمع العقل والقوة، أى السيف والقلم تتحقق الآمال، هكذا حدث فى حطين وفى عين جالوت وفى المنصورة ودمياط وعكا، وبهذا واجه العرب حملات المغول وقبلئذ فتحوا الافاق ونشروا الحضارة والعلم، وبعدئذ واجهوا غزوات كل الافرنج واباطرة الحرب (جودفرى، بودوين، كونارد، لويس السابع، فريدريك بارباروس، ريتشارد قلب الأسد، فيليب اوغسطت، بودوين التاسع، جان دى بوبان. . الخ) وهكذا طويت خيمة الملك الصليبى (جان لوزنجان) فوق جبل حطين، ومن أجل ذلك أجاب صلاح الدين الأيوبى عندما قيل له أنك ستدخل القدس وتحررها ولكن بعد أن تفقد أحدى عينيك، أجاب قائلا، قد رضيت بأن أعمى وأدخل المدينة المقدّسة . .

ويتذكر الفقى مصباح أن العرب لم يتمكّنوا من صد كل الغزوات والمحافظة على كيانهم إلا بوحدتهم، هكذا حدث فى حطين عندما وحّد صلاح الدين مصر وسوريا وتلك الإمارات

التى كانت متناحرة، ولم يتمكن بعده محمد على الكبير أن يمتد بمصر جنوبا وشـرقا إلا بوحدة مصر وسوريا، كـذلك قبلئذ لم يُهزم جيش الفونسو ملك قشـتاله إلا بوحدة العرب عندما التحق جـيش يوسف بن تاشـفيـن بقوات بن عـبـاد فى الأندلس، أن الوطن العـربى والأمـة العربيـة بالإمكانيـات المـادية والبشـرية والاقتصادية والعـسكرية والعلمية والثقافيـة إذا ما اتحّدت تكوّن دولة قوية آمنة تجدد ثوب الأمة والإسـلام وتبعث العزة وتنشئ علم وحضارة من جديد ويحدث مرة أخرى ما كان قاله الخليفة العـباسـى ذات يوم عندما كـان ينظر إلى السـحب وهى سـائرة (اهطلى حـيث شـئـتى فإن خـراجك آت إلينا. .) كـان الفـتى مصباح فى شبه غيبوبة أو حلم ليل، وكانت أحداث التاريخ تمر كشريط إمام عـينيه، الأحداث والمواقع والشخوص، مـلأ عينيه من الضـوء ، أنه يرى علم الثورة يـرفرف، يغـمض عينيـه ثم يفتحهما ليتأكد، الـعَلَمْ يرفرف عاليا بألوانه الثلاثة يتوسطه صقر قريش، سبحانـه مغّير الأحوال، سبحانه الذى يُغـّـير ولا يَتَغيّر، يحدث كل شئ هكذا بسرعـة، كان يضع راحة يده فوق جبـهته ينظر مليـا، نعم أنه علم الثورة، ذاك صـقر قريـش ولـم يشأ أن يلاحظ أن هناك صقورا مـختلفة فى أعلام كثيـرة رفعت، صقر

رأسه فى اتجاه اليـمين وآخر رأسه فى اتجاه اليـسار، المهم أنه علم الثـورة وأن كان يخـشى الاختـلاف حتى فى رسم صـورة الصـقر !

صرخة الإسلام ، الله أكبر فى كل مكان وبين كل الشفاه، جياد بنى أمية الأندلس، منارات دمشق وبغداد والقاهرة . .

يقرا . . ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

(سورة الأعراف : ٥٨)

كانت البلاد فى انتظار مثل هذا التغيـير الذى جاء كومضة من ومضات القـدر، وهكذا فإن الأرض العطشى إذا جاء المطر تكون تربة خصـبة للقاح الأزهار، وكـان الشيخ على ومن على شاكلته من مـجتمع الطبقة التى أصـبحت ذات ثراء بسبب النفط والمقـاولات وذات جاه بالمراكز الحـكومية أو عضـوية مجلس النواب أو الشيوخ تتابع باندهاش تطور الأمور وظهور ما يفاجئ من لا يتوقع أن الشعوب لا ترضخ للظلم والاستغلال والعبودية ولم يكن يخطر ببـال أحـد من هؤلاء أن مـثل هكذا حدث قـد يطرأ ذات يوم فلا يعقل أن يـسمح الأمريكيون ومـصالحهم كثيرة

فى البلاد من شركات النفط إلى القواعد العسكرية الاستراتيجية بتغيير نظام الحكم ما لم يكن النظام الجديد اقرب إليها، كذلك فإن بريطانيا وهى صاحبة الطول والقول فى البلاد لن تقبل بسهولة أن يطاح بالملك الذى جاءت به والذى ضمن لها البقاء وقد انتشرت قواعدها العسكرية البرية والجوية فى كل مكان من أرض ليبيا وخصوصا تلك المتأخمة لحدود مصر حيث يتحصن عدوها اللدود جمال عبد الناصر . . هكذا يتصورون . .

الشيخ على وكان يجلس مع نفر من الأصدقاء ، يرتدى بدلة رمادية اللون ورباط أنيق تتخلله خطوط زرقاء وقد ارتكزت على حافة أنفه الطويل نظارة طبية، فهى من متطلبات الوجاهة وغالبا ما توحي بالعلم والثقافة، كان يضع لفافة تبغ بين شفتيه وقد برز كرشه كثيرا وانتفخرت شدقاه وتلكم الوجنتين المحمّرتين، ولعل الكرش لم يكن ليظهر كثيرا عندما كان يرتدى اللباس الوطنى إلا أن الأعمال الحديثة والجديدة وعضوية مجلس النواب وعلاقات المجتمع الجديد اقتضت التخلى عن اللباس الوطنى (الملابس العربية تسمى لباس وطنى) كان يتحدث عن مستقبل البلاد وكيف أنه كان يتوقع هذا التغير فهو لصيق بالانجليز والامريكان وكان يشاهد يوميا ممارساتهم

وغطرستهم وكيف كانوا يعيثون فى الأرض فسادا، وبينما هو يتحدث كان يسمع أناشيد الثورة التى تبثها الإذاعة وهى تطرق أذنيه كأنها مصارق تجلده بعنف لأنه لا يستسيغها وإن لم يكن يُظهر ذلك لأنه يريد المحافظة على مصالحة فى الوضع الجديد كما أنه كان ينظر شزرا إلى جماعات الشباب الذين ينتظمون فى مسيرات مؤيدة للثورة وهم يرددون هتافات لا يود أن يفهمها فهى ضد النظام السابق والقواعد والقوات الأجنبية لأنه بالضرورة من رجال النظام السابق رغم اللهجة التى بدأها الآن . . وهو يحس بذلك فى قرارة نفسه وأن تظاهر بغيره، ولابد أنه يتمنى أن تقوم أمريكا أو بريطانيا بعمل ما . .

كان معه خمسة من الأصدقاء وقد كان الأستاذ مصطفى وهو أيضا عضو فى البرلمان ينظر إليه بعينين جاحظتين كأنما يريد أن يقول سبحانه مغيّر الأحوال، الشيخ على الذى كان يقول أن لا مستقبل للعرب والمسلمين إلا بالارتباط مع بريطانيا وأن سبب المشاكل والشغب هو صوت العرب وجمال عبد الناصر يتحدث الآن بشكل مغاير! وأن لم ينبس ببنت شفة غير تلك النظرة المتفحّصة، أما الأربعة الآخرون فكانوا ينصتون بهدوء لأن اثنان منهما يرتبطان بمصالح مع الشيخ على، هما

الحاج عبدالله والحاج عبد العالى والاثنان الآخران كان أحدهما مدرسا بمدرسة ا لأمير الثانوية وهو وأن لم يتحدث إلا أنه فى قرارة نفسه يرى أن ما حدث هو نتيجة طبيعية لما يحس به الشعب من ضيم وظلم بسبب القواعد الأجنبية ووضع ليبيا بين العرب فهى الدولة العازلة أو هكذا أريد لها بين مغرب الأمة العربية ومشرقها، وهذا يدعى الأستاذ عبدالجليل بينما كان الثانى وهو الشيخ جابر مدرسا للشريعة فى الجامعة الإسلامية وهو ممن يعتقدون أن الملك رجل صالح تقى وأن أى عمل ضده لابد أن يكون مغامرة غير مأمونة الجانب وليست بعيدة عن الارتباط بجهة ما، إلا أنه مع ذلك لم يقاطع الشيخ على ذلك أنه كان قد سمع أن الشيخ على فعلا ينتمى إلى ما عرف بالمعارضة فى مجلس النواب، وكان الشيخ على قد ذكر أنه عارض مشروع طريق فزان وأنه صوّت فى صف المعارضة وذلك موقف وطنى، وعندما يقترب يوم الحساب يبدأ كل إنسان فى بحث أوراقه وتذكّر ماضيه وأعماله، يستمر الشيخ على رغم أنه كان يلاحظ نظرات صديقه الأستاذ مصطفى التى تكاد تحرق وجهه، يقول، لقد كان البرلمان يجمع عددا من الوطنيين الذين لم يكونوا ليرضوا لبلادهم المهانة وكنت بين أولئك الذين

طالبوا بإلغاء الاتفاقيات والقواعد الأجنبية بعد أن اتضحت اغراضها سنة ١٩٥٦م وقد ذُكر أن قاعدة العدم قد استخدمت فى الهجوم أثناء العدوان على مصر والذى عرف بالعدوان الثلاثى، هنا يقاطعه الأستاذ مصطفى قائلا، أننا جميعا كنا ضد استخدام القواعد الأجنبية فى ليبيا ضد أى بلد عربى مهما كان كما أن هذا قد نص عليه فى الاتفاقيات مع كل من بريطانيا وأمريكا، ونتيجة لذلك اضطرت الحكومة أن تبدأ مباحثات مع بريطانيا بشأن القواعد، كان يداعب حبات مسبحته بشكل عصبى بينما كان يتحدث وهو يريد من طرف خفى أن يُشعر الشيخ على بأنه على علم بكل شئ فى مجلس النواب وكأنما أراد أن يقول له، لا ترتدى ثوبا غير ثوبك !!

فقال الشيخ عَلِى نعم، ربما كانت البلاد كلها ضد القواعد الأجنبية خصوصا بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦م، وعندما قامت الثورة كانت الناس كلها تتطلع إلى حدوثها وكان الملك قد غادر البلاد وظهرت المنشورات التى تدعو إلى الثورة وسمع الملك وهو فى بلاد اليونان عن المنشور الذى وزع فى البلاد وتعرض له بالتجريح فقرر عدم العودة وكأنه كان يتوقع قيام الثورة وهو خارج البلاد، سبحان الله، قالها وهو يرفع يديه

وينظر إلى السماء، كانت السماء صافية زرقاء والهواء ما يزال فيه لفحة حرارة إذ لم يكن شهر سبتمبر قد انتصف، كان وهج الشمس يلفح رؤوس أشجار حديقة بيت الشيخ عَلِى بينما تنعكس أشعتها فوق مياه حوض السباحة الذى يجلس بالقرب منه الضيوف، وكان قد عاد لتوه من اجازته التى قضاها فى أوروبا متنقلا بين إيطاليا واليونان، تمنى لو أنه لم يعد فلا أحد يعرف ما الذى سيحدث أو ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم أحد وقد صارت مقاليد الأمور فى أيديهم، وتساءل، ترى ماذا سيفعل أولئك الذين بقوا خارج البلاد؟؟ كان الجمع كلُ يفكر فى أمره عندما تساءل الشيخ عَلِى ، ولم يرد مباشرة إلا الأستاذ عبدالجليل الذى قال لابد أن يعودوا جميعا لأن الثورة ليست ضد الناس، أى ثورة فهى بالضرورة ضد الفساد وسوف تحاكم أولئك الذين افسدوا الحياة السياسية، وهذا الكلام استثار الشيخ عَلِى الذى بادر بالقول، ماذا تعنى بإفساد الحياة السياسية؟ فقال الشيخ جابر مدرس الشريعة بالجامعة الإسلامية، بعض الناس كياجوج وماجوج ولكن الملك برئ من كل شئ وقد ذكّر الناس عدة مرات (بأن السيل قد بلغ الزبى..) لكن لا حياة لمن تنادى، فبادر الأستاذ

عبـدالجليل قائلا، كل راع مسـؤول عن رعيته ولا يمكن اعـفاء الملك من تبعات مـا فسد، أو لم تسمع مـا قاله الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما جاء جنوب المسلمين بتيجان الذهب المرصّعة باللآلئ وقد تعّجب أن يد أحـد لم تمتد إلى شئ من ذلك، قـال على، لقد عففّت فعـفّوا يا عمر .. بمعني أن الحاكم عندما يكون عـفيفا طاهرا نقيا تقتديه الرعية، وهنا قال الشيخ جابر، وهو ينظر شزرا فى وجه الأستاذ عبدالجليل، كيف يمكنك أن تحكم على النظام بالفساد وقرأ .. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ (سورة الحجرات :٦) وأضاف قائلا:

(أن الأمـــيــر هـو الذى يَضْحَى أميـرا يوم عـزله
إن زال سـلطان الـولايـة لم يزل سـلطان فــضله)

ولقد احتّد واحتدم النقـاش بين الأستاذ عبدالجليل والشيخ جابر إلا أن الشيخ على تدخل قائلا، يا جـماعة دعونا نفكر فى الأمر وعلمَ الخلاف؟ فنحن جميعا فى نفس القارب .. إلا أن الأسـتـاذ عبـد الجليل رد بســرعة قـائلا ، لا، نحن على نفس الأرض لكننا لسنا فى نفس القارب.

وبعد فتـرة صمت تحدث الحاج عـبدالله وهو الذى يرتبط مع الشيخ على فى شراكة عمل ومـقاولات ليقول ، إن الانجليز لابد أن يتدخلوا فى الوضع ولا يمكنهم القبول بالأمر الواقع وأن مـا قـام به ضبـاط الجـيش هو عـمل من أعـمـال الطيش التى يوجهها صـوت العرب ومصر وأن ليبيا ربـما تكون مثل سوريا ساحة انقلابات عسكرية ولن تشهـد البلاد أى استقرار، وشاركه فى الرأى الحاج عبد العالى الـذى قال أن الأمريكيون أيضا لابد أنهم يراقـبون الوضع الجـديد فى البـلاد هذا إذا لم يكن هؤلاء على اتصال بهم؟ وكـيف يعقل أن لا تتحرك القوات الـبريطانية لحماية النظام الملكي وهى على مرمى حجر من القصر الملكى فى طبرق؟ كذلك فإن الأمريكيون لديهم قـوات كبيرة فى قاعدة هويلس بطرابلس. . لكن الغريـب فى الأمر أن جمال عبد الناصر كان قد أيد الثورة منذ البداية وأرسل وفدا للتهنئة وقيل أنه أرسل ثلاث كتائب مدرعة لمساعدة الثورة فى مواجهة الانجليز إذا ما ارادوا فرض موقف ما على الضباط، كذلك فإن بعض الشعارات التى رددت فى الإذاعـة خـلال الأيام المـاضـية أو كـتـبت فى الصحف توحى بأن هؤلاء الضبـاط ربما كانوا على اتصال بمصر وبالتالى يؤمنون بنفس المبادئ التى ينادى بها جمال عبد الناصر يـسكت قليلا، بينما كان الآخرون قد انصرف كل منهم يفكر فى

هذا الذى ذكره الحاج عبد العالى، وبعد فترة اضاف، لكن تشكيل الحكومة يظهر أنهم يتجهون إلى النظام المدنى ويرغبون فى الاستعانة ببعض السياسيين القدامى؟ وهنا قال الأستاذ عبدالجليل، وماذا يعنى استحداث وزارة للوحدة والخارجية؟ ألا يعنى هذا أن هؤلاء يؤمنون بمبادئ وشعارات جمال عبد الناصر وأنهم سوف يعملون على تطبيق الوحدة مع مصر ضمن تلكم المبادئ والشعارات؟

يقفز الحاج عبدالله الذى كان لا يشارك فى الحديث ليقول، مصيبة إذا كان الأمر كذلك وبلهجة محلية يقول (يأكلونا هم واجدين واحنا شويه) وما الذى عمله عبد الناصر فى مصر باشتراكيته؟ ألم يعاد العالم كله ويجعل مصر مفلسة وخصوصا بعد سنة ١٩٥٦م وهزيمته التى يسميها أعلامه نصرا مؤزرا!!؟ والحاج عبدالله هذا كان موظفا فى مصلحة حكومية عملها يرتبط بالأجانب وإقامة رجال الأعمال والشركات الأجنبية وبدأ يحصل على رشاوى (التى يسميها مساعدة) وقامت واحدة من شركات المقاولات بشراء سيارة له، وكان من المعتاد أن تشترى الشركة الأجنبية سيارة أو سيارات لبعض المسؤولين وتقوم فى نفس الوقت بتشغيل تلك السيارة أو السيارات لديها وهو ما حصل مع (سى عبدالله) فهو لم يفعل شيئا فقد سجلت السيارة

باسمه وكانت وقتذ من نوع يسمى (تيبر) وهى سيارة عمل كبيرة وأستخدمت الشركة تلك السيارة لديها بعد أن أوجد لها سائقا من أقاربه، وبعد السيارة الواحدة اشترى ثانية وثالثة وكانت جميعها تعمل لدى نفس الشركة، وكان يقول، فتح الله علىّ، وعندما (تبحبحت الأمور) هكذا يقول، اشترى بواسطة الشركة سيارات أخرى ثم أسس شركة مقاولات خاصة به أطلق عليها اسم (منطقته . .) أى المنطقة التى تقيم بها قبيلته وعينّ لها مديرا وصارت تعمل فى مجال المقاولات والبناء. . وهو بذلك يساهم فى بناء وتقدم البلاد !!! ومن هنا فهو ضد الوحدة والاشتراكية، ويقول ما فائدة الوحدة؟ فى حين أن الاشتراكية ضد الإسلام ونحن مسلمون ونؤمن بالله. . وألتقط الشيخ جابر الخيط ليتحدث عن الاشتراكية وموقف الإسلام من هذه الناحية باعتباره مدرسا بالجامعة الإسلامية ليقول، أنها جزء من الموقف الالحادى الذى ينهجه الروس وأن كارل ماركس عندما نادى بالاشتراكية كان يهدف إلى محاربة كل الأديان باعتباره يهوديا ملحدا، وأقسم على أنه أطلّع على عقيدة ماركس هذا، ينبهه الأستاذ عبدالجليل إلى أنه مازال يقسم باسم الملك وربما كان هذا غير مرغوب فيه الآن وقد يعرضه إلى بعض المتاعب أضافة إلى أنه مخالفا للدين، وقد أعتاد الناس عندما يريدون التأكيد

على شئ ما أن يقولوا (وحق سيدى أدريس) ولكن الشيخ يرد بنرفزة، يا سيدى الموت واحد . .

وهنا تناهت إلى أسماع الجلوس أصوات مختلطة عالية سرعان ما توضحت وإذا هى مظاهرة يقوم بها بعض الشباب كانت تطالب بجلاء القوات الأجنبية وتحقيق الوحدة وتطبيق الاشتراكية ومحاكمة الذين اثروا واستغلوا وافسدوا الحياة السياسية فى البلاد، ويظهر الامتعاض الشديد على وجوه الحضور فيما عدا الاستاذ عبدالجليل الذى علّق قائلا، هذا هو صوت الشارع، ينظر إليه الشيخ على شزرا ويقول باستياء، انتقلت إلينا العدوى، شعارات فارغة بلا محتوى يتخذها العاطلون تعلّه لإفساد البلاد وهذا ما يخيفنى لأنه يستفز الانجليز والأمريكان وبالتالى قد يقوموا بعمل ما ، ينظر إليه الثلاثة الآخرين، وهم يتمنون ذلك وأن لم ينبسوا بكلمة، وتساءل الشيخ جابر، كيف؟ وفضح نفسه بأن قال، ومتى؟ ولكن الشيخ على ما يرد بل اكتفى بأن يحدق فى وجه الأستاذ عبد الجليل الذى أصبح بينهم كأنما هو ممثل الثورة والمدافع عنها، والأستاذ عبدالجليل وأن لم يكن ممثلا لأحد ورغم صداقته لهؤلاء فقد سبق أن قال أنهم ليسوا فى قارب واحد وبالتالى فهو له رأى خاص فى النظام الملكى وفى الحياة السياسية والوضع

بصورة عامة خصوصا وجود القواعد والقوات الأجنبية فى البلاد، ولذلك انبرى يرد على كلام الشيخ جابر . . قال، أن الاشتراكية لا علاقة لها بالألحاد، والإسلام ليس ضد الاشتراكية لأن الإسلام رسالة مساواة وتوحيد وجهاد فى سبيل الحق، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام، يرددون جميعا، عليه الصلاة والسلام، قال (نحن شركاء فى الماء والنار والكلأ، فى ثلاث) وهذه مصادر القوة والحياة وقتئذ ، كما أن الوحدة قوة وكان الإسلام رسالة توحيد ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وأضاف، لقد كان هناك استغلال وكان الواحد يكوّن ثروة لمجرد أنه صديق لوزير أو نائب أو أنه من قبيلة كذا، وكانت القبيلة جزءا من تكوين الدولة، ربما كانت قبيلة واحدة هى الدولة نفسها؟ وإذا كانت مصر قد تحررت من القواعد والقوات الأجنبية التي جثمت على أرضها أكثر من ثمانين سنة وكذلك الحال بالنسبة للجزائر التى ناضلت وقدمت أكثر من مليون من الشهداء للتخلص من الاستعمار الفرنسى البغيض فإنه لا يعقل أن تبقى ليبيا مكبّلة بالقواعد ويحكمها نظام ملكى لا يعبّر عن

إرادة الشعب، ونحن نعرف أن مصر والجزائر هما جارتا ليبيا من الغرب والشرق وهما تؤثران وتتأثران بليبيا وما يجرى فيها.

وهنا اشرأبت الاعناق وأحمّرت العيون وظهر الغضب، كيف يمكن للأستاذ عبدالجليل أن يقارن ليبيا بمصر وكيف له أن يصف الأعمال الحرة بذا وصف ويتحدث عن القبيلة كما لو أنها جريمة؟! وهنا قال الشيخ جابر محتّدا، أن الله سبحانه وتعالى قال فى محكم آياته ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣) قرأ الآية وهو يتفحص وجه الأستاذ عبدالجليل، ثم ينظر إلى الشيخ على ويقول، أليس كذلك يا شيخ على؟؟ فيتنحنح هذا ويقول، نعم نعم، ولكني اعتقد أن الأستاذ عبد الجليل لا يقصد الأعمال الحرة مثل التى نقوم بها وربما كانت هناك أعمالا غير قانونية ونحن كما تعرفون ضد ذلك وقد اثرناه فى البرلمان، يهّز شريكيه رأسيهما، نعم نعم، الشيخ على لا يريد أحداث خلاف مع الأستاذ عبد الجليل لأنه كما اعتاد دائما يمسكل العصا من الوسط وربما يكون الأستاذ عبد الجليل له علاقات مع هؤلاء الضباط فهو أستاذ وتقدمى وحديثه يوحي بشئ من ذلك كأنما هو على اتصال

بأحد . . وهنا نظر فى وجه الأستاذ عـبد الجليل مباشرة وقال، ألا تذكر أننــى قلت أنى كنت أتوقع التغـيير وأنا نفـسى لم أكن راضيا أن تبقى البلاد تحت رحمة الإنجليز والأمريكان ولكن ألا ترى أن الحكم على الأشياء فى غـير سياقهـا التاريخى أنما هو ظلم فاضح، ودعنا يا أستـاذ عبدالجليل نتذكّـر حالة البلاد عند الاستـقلال وكيف كان حـال الليبيـون وقتـئـذ، لا أحد منا ينكر تضحيات وجـهاد الليبيين ونحن كلنا ليـبيون ، هنا تكلم الثلاثة فى وقت واحد، أى والله هذا هو الصـواب فى الحديث، أسأل مجـرب ولا تـسأل طبـيب، الشيخ على مجـرّب وقد بنى نفـسه بالجـهد والعـرق وساعـد غيـره. . يستـمر الشـيخ على، عند الاستـقلال كـانت ليـبيا قفـار يباب، لم تكن فـيهـا زراعة ولا صناعة، وكان النـاس يعملون فى الزراعة البدائيـة فقط، حرث وحصـاد، وكان البعض يتعـيشون من بيع نبـات الحلفاء وبعض الحرف التى لا تشبع ولا تغنى من جوع، وكـما قال سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهـه، والله لو كان الفقر رجـلا لقتلته بسيـفى، الشيـخ على يحب دائما أن يظهـر بأنه رجل دين وهو يستدل بالأحـاديث والآيات القرآنية غالبا فى حـديثه، ويضيف، ولو لم يكن الملك قد اتفق مع الانـجليز ، ولو لم يكن الملك قد اتفق مع الانجلـيز قبل انتـهاء الحرب العـالمية الثـانية على

الاستقلال ربما ما كان يمكن أن تستقل ليبيا، وأنت تعلم، مشيرا بسبباته إلى الأستاذ عبد الجليل، أنه كوّن الجيش السنوسى فى مصر واشترك هذا الجيش مع الانجليز فى الحرب، يقاطعه الأستاذ عبد الجليل ليقول، ليس فى الحرب وأنما فى حفر الخنادق، فيرد الشيخ بحدّة يا سيدى ما علينا هى كلها حرب، ألا تعتقد أن من يحفر الخنادق يمكن أن يموت، أهى كلها حرب.

المهم أن الملك هو الذى (جاب) الاستقلال باتفاقه مع الانجليز، وبعد الحرب أراد الانجليز التحليل من وعدهم وأرادوا أن يكون الملك أميرا على برقة فقط، وهو ما حدث فى البداية ألا أن السيد أدريس أصرّ على تحقيق الأتفاق كاملا وبالتالى تحقق له ما أراد وصارت ليبيا مملكة متحدة عربية، هنا رفع الأستاذ عبدالجليل يده كأنما أراد أن يوضح ولكن الشيخ على لم يتوقف ، بعد الاستقلال كيف كان الحال؟

لم يكن هناك من سبيل غير الاعتماد على المساعدات الأجنبية وهذه المساعدات لا تُعْطَى لوجه الله، ولهذا كان من الضرورى البحث عن حل، كان البلد فقيرا وبلا موارد والناس بلا عمل، فقر شديد وتعليم متدن أو معدوم الأمية متفشية فى البلاد، وكان العالم كله قد خرج من الحرب العالمية الثانية

منهكا، كـان سكان ليـبـيا فى الغـالب رحّل أى بدو، وكـانت القوات الأجـنبية مـوجودة فى ليـبيـا وهى لابد أن تبقى بـسبب الضرورات الأمنية للحلفاء وتم الاتفاق على تأجير بريطانيا بعض المناطق لجـعلها قـواعد لقـواتها ومن هنا عـقدت اتفـاقيـة مع بريطانيـا وبعدها عقـدت اتفاقـية أخـرى مع الولايات المتـحدة الأمـريكيـة وبذلك حـصلت ليـبيـا على بعـض المسـاعـدات الاقتصادية والعسكرية..

قال الأستاذ عبد الجليل فى جملة اعتراضية، إذن سايكس بيكون جديدة؟! فقال الشيخ على العكس تمـاما فالقواعد كانت فى مناطق بعـيـدة عن المدن والمـناطق السكانيـة ولم يشتـرط الانجليز ولا الأمريكان شـيئا على الملك وكما تعرف فـإن ليبيا كان هناك من يريد تقـسيمهـا إلى ثلاث دول هى برقة وطرابلس وفزان، وكانت هناك مطامع لإيطاليا وأخرى لفرنسا، ونحن بعد الاسـتـقلال نريـد بناء دولة، بمـعنى جـيش وبوليس وإدارات، صحـة و تعليم وغيـر ذلك، ولا تنسى أن هذا كله قـد حدث، تكوّن الجيش وانشئت إدارة الدولـة بالكامل وتأسست المدارس والجامعات والمعاهد وأرسلت البعثات التعليمية إلى كل مكان، وهنا يتـدخل الحـاج مـصطفى ليـقول، يـا جمـاعـة أنتم الآن تحاكمون عهـدا كاملا دون أن يكون لكم الحق فى ذلك، دعونا

نفكر فيما سيحدث من هؤلاء الضباط.. ينظر إلى ساعة فى معصمه ويقول، لنسمع نشرة الأخبار من الإذاعة الليبية، يتقلون جميعا إلى (المربوعة) ويبدأ الشيخ على فى ضبط مؤشر الراديو، هنا إذاعة الجمهورية العربية الليبية، ينظر الحاج مصطفى متفحصا وجه الحاج عبدالله ، بنرفزة سبحانه مغير الأحوال . . ؟

فى النشرة كلام عن الأمة العربية والوحدة العربية والقواعد الأجنبية والبدء فى المباحثات مع بريطانيا فى هذا الشأن . .

يقول الشيخ على

لقد طالبنا نحن فى مجلس النواب وكلفنا الحكومة بأن تدخل فى مفاوضات مع الانجليز بخصوص القواعد لأنها لم تعد مقبولة . .

فيرد الأستاذ عبد الجليل بنوع من الاستهزاء . . وهل خرجت بريطانيا؟ وقبل أن يرد أحد يضيف ، كان ذلك فقط لدر الرماد فى العيون، أما الآن فإن الانجليز والأمريكان يعرفون تماما أنه لابد من الجلاء كما حدث لهم فى مصر، ينظر الشيخ جابر شزرا، ويقول، مصر مصر ، ما علاقة مصر بنا نحن فى ليبيا؟ نحن فى ليبيا وليس فى مصر وإذا تدخل عبد الناصر ستكون مصيبة وربما تحدث حرب أهلية لأنه ليس من السهولة

إخراج بريطانيا من البلاد خصوصا إذا عرف الإنجليز بأن أصابع عـبد الناصـر تلعب فى الخـفـاء ومن الخيـر لنا أن لا يحـدث ذلك . .

يـتأذن الأستاذ عبدالجليل فى الانصراف ويلحق به الشيخ على عند الباب ليودّعه وقد ربّتَ على كتـفه قائلا، نحن جميعا حريصون على البلاد ومصالحها يا أستاذ عبدالجليل، ولا ينـسى أن يهمس فى أذنه برجاء ألا يبخل عليه بفرصة تعارف إذا كانت له صلات مع هؤلاء الضـباط، فيقـول الأستاذ عـبد الجليل أنه ليـس ضـابطا ولا علاقـة له بأحـد من الضـباط أو حـتى جنود الجيش وإنما هو مدرس، ولكن الشيخ على لا ييأس فقال، لعل وعسى . . يعـود الشيخ على إلى مجلس رفاقـه ويدور الحديث فيـما يجب عمله إذا مـا تحقق أن هؤلاء الضـباط سينفـذّون ما رفعوا من شعارات . . الشيخ علـى قبل أن يتحدث تذكّر شريط حياته، لقد كـان دائما يرى أن الحل والربط فى يد بريطانيا وأن التقدم واصـلاح البلد لا يتم إلا بالتعاون مع بريطانيـا والغرب، وكان يرى أن ليبيا يجب أن تكون دولة عربية مسلمة ولكنها ليبيا فقط، فلا مصر أو غيرها يمكن أن تـساعدها . .

يتذكر كيـف بدأ وكيف كان موقفه من عبـد الناصر، كان يعيش بين المدينة والريف وكـيف حصل على أول جهاز راديو،

وماذا كان يقول عن حرب الجزائر ولجنة الأمم المتحدة فى ليبيا ونقاشه مع الفقى مصباح، ثم كيف بدأ فى تأسيس أول شركة مقاولات وتموين وكيف عمل مع معسكرات الأنجليز والأمريكان وقد توسعت أعماله وكسب كثيرا، وكيف أصبح عضوا فى مجلس النواب وصار يجلس مع الوزراء ويزور السفير البريطانى ويُدعى إلى حفلات ومناسبات رسمية، وإذا كان قد كوّن ثروة كبيرة ومكانة عالية فإنه لابد من المحافظة عليهما، وهذا يتطلب البحث عن فرصة، عن صلّة، عن مكان، ولا يمكن للشيخ على أن يترك القطار يمر دون أن يتعلق به وإذا كان قطار الثورة مسرعا خلال هذه الأيام فلن يفوته مهما كان الأمر، سيجد الفرصة ذلك أن المال يفتح الأبواب الموصدة وهو يؤمن بالمصالح الدائمة، كما أنه يعرف أن الثوار يكبرون وأفكارهم تختلف وتتوسع وغاياتهم بالتالى تختلف وتبعا لذلك فإن معالجتهم للأمور تختلف، قبل الثورة يكونوا انقياء إطهارا غاياتهم واحدة وهدفهم واحد، وهو الثورة والتغيير، تغيير كل شئ.

وعندما يحدث ذلك تتشعّب المسارب وتظهر الأهواء وتتاح الفرص، يكثر ادعياء الثورة والثوريين وانصارها والمتقدمين فى صفوفها، وكل الذى يحتاجه هو ضبط وتيرة

حـركـتـه، سـوف يظهـر نهـازّوا الفـرص وأدعيـاء الإصـلاح، وستصطّف الطوابير وكلها تمـجد وتزمّر، ولأن الثورة تيار هادر جارف فلا يجب الوقـوف أمهامها إلا إذا كانت هاك قـوة أكبر، وفى الحالتين فهو لا يخسـر شـيئا، وكان قد سمع فى الأنباء أن هناك برقيـات تأييد للثورة مـن مختلف القطاعـات وحرى به أن يبادر إلى التأيـيد والتـهنئة ذلك أن النظام القديم لن يعود والدليل أن لا بريطانيا ولا أمريكا حركتا ساكنا . .

أنه ليـس أبلهًا بحيث لا يدرك أن النظام القديم تفكك كلعبة طفل ولم يصمد يوما ولا حتى ساعة واحدة رغم الطنين والأطراء وعنترة رجال القبـائل، فقد كانوا يقولون بمناسـبة وبلا مناسبة أن لديها آلاف المـسلحين المسـتعدين للدفـاع عن الملك، وكانت هناك القوة المتحركـة التى أريد لها أن تكون القوة الرادعة وهناك القوات البريطانيـة والأمريكية ومئات المخبـرين والعملاء، بل أن نظام عبد الناصـر نفسه لابد أنه كان يحسب ألف حسـاب للقبائل الليبيـة خوفا من تجربة اليمن ذلك أنـه إذا قام نظام موالى له فى ليبيا فلابد أن يسانده أو يساعده وقد يتدخل عسـكريا كما حدث له فى اليمن ويتورط فى حرب عصابات مـع القبائل مثلما حدث فى اليمن و تلك كانت تجربة مريرة وقاسية على جيش نظامى، لكن هذا كله تهاوى كبناء من الكرتون. .

تظهر على شفتيه ابتسامة صفراء، يفكر فى نص البرقية، اومأ بيدة اليمنى فى الهواء، كل شئ تهدم كجدع نخلة تاو، تنهد حتى احّس بأن ريئتيه تؤلمانه.. وعندما قفل عائدا طفق يفكر فى نص البرقية مرة أخرى، برقية تأييد، لابد من لغة أخرى جديدة وأسلوب جديد، يشرح أفكاره التى اختمرت فى ذهنه لشريكيه، الحاج عبدالله والحاج مصطفى وجليهما الحاج جابر، وقد وافقوه على أن المصالح هى الأهم وأن كان الشيخ جابر قد ردد بمرارة استنكاره لما يقال فى الصحف والإذاعة عن الملك والنظام السابق على أنه نظام عميل وجاهل وقد عّبر عن ذلك بقوله، أن هؤلاء لم يجربوا المؤولية، مسؤولية الحكم وتبعاته ولم يعاصروا المشاكل والصعاب التى مرت بها البلاد !! وحاول أن يثبت أنه إذا كان الملك صديق الإنجليز فلابد أن هؤلاء أصدقاء أن لم يكونوا عملاء لأمريكا، وإذا كان الاحتكام للشعب فإن الملك قد استفت الشعب خلال الزيارة التى قام بها عبر ليبيا فى عهد حكومة عبدالحميد البكوش وكان يستقبل اينما حل استقبالا شعبيا يليق بملك البلاد حيث كانت تذبح الذبائح وتقام الأفراح، وربما أن هؤلاء الذين يقومون الآن بالمسيرات هم الذين كانوا يرقصون ويصفّقون آنئذ للملك وصحبه، إلا أن الشيخ على قاطعه ونهره، فلا يجوز أن نرمى الناس بالتهم التى

لم نكن على يقين منها، والشيخ على لا يعتقد أنه ليس للحيطان آذان فى كل مكان، وأن ثمن أية وشاية الآن يكون غاليا فى هذا الظرف العصيب..

غادر الشيخ جابر البيت دون أن يعلّق بشئ على اقتراح الشيخ عَلى بشأن التأييد فهو فِى النهاية ليس معنيا بذلك فلا هو عضوا فى البرلمان ولا صاحب تجارة وشركات وليس معروفا لأحد، وكان يؤمن بالمثل القائل، الأمير من لا يعرفه الأمير..

دعا الشيخ عَلِى شريكيه إلى مائدة العشاء ولم يكن قد تذكر أن يدعو الشيخ جابر رغم أن انصرافه كان فى وقت العشاء ربما لأنه كان مشغول البال، كان الدم يجرى فى عروقه مثل تيار كهربائى جاعلا من دقات قلبه سيلا متواصلا مسموعا كجرس ساعة الحائط عندما يزف الوقت الذى ضبط عليه، عاليا مدويا، حاول استجماع أفكاره وشجاعته كما تعود أن يفعل دائما فقد قال أن لا شئ يصعب على الشيخ عَلِى، وقد ذكر لصاحبيه أنه لابد من إرسال البرقية فى تأييد الثورة باسم الشركة التى قال عنها أنها مؤسسة، وأضاف، أن هؤلاء الناس لابد من التقرب إليهم وأن التعبيرات الفخمة تستهويهم كما هى الشعارات والهتافات والأطراء، ثم قال أنه لابد أن يجد الوسيلة التي يحافظ بها على مصالح الشركة..

انصرف شريكاه بعد العشاء والشاى، وأراد الشيخ على أن يركن إلى فراشه ولكن النوم جافاه فقد تذكر الشعارات التى ترفعها الجماهير وترددها الإذاعة وكذلك العلاقة بمصر وعبد الناصر، وخطر بباله الفقى مصباح وتلك القرية وقضية الجهاد والثورة ، قناة السويس والفدائيين، ثورة الجزائر وحى كريتر، قصص وأحاديث طواها الزمن برزت فجأة كشريط أمام عينيه. .

تساءل، هل يظهر فجأة أيضا الفقى مصباح؟ أتراه على علاقة بأحد من رجال الثورة؟ إذا حدث ذلك فإن مصالح الشيخ على ستكون فى خطر، وطرأ فى ذهنه ما كان يحدث مع أثرياء مصر، المصادرة والتأميم بل والسجن والنهايات المأساوية. . !؟.

ولم يكن من عادة الشيخ على الركون إلى منامه فى ذلك الوقت فقد كان بيته قبلة للزوار وأصحاب المصالح بدءا بالرجال الذين يعملون معه وشركاؤه ووكلاؤه وانتهاء بزيارات المسؤولين الذين يرتبط معهم بمصالح مثل بناء البيوت والخدمات الأخرى، وكذلك المحتاجين للمساعدة فى العمل والتوّسط، ولكن هذا لم يعد مألوفا كل مساء، فقد بدأت الزيارات تقل إذ لم تعد الوساطات ممكنة ولم يبق هناك وزراء أو نواب إذ أن من لم يسجن يكون قد التزم بيته انتظارا لما سوف يحدث، وربما

يعود ذلك إلى أنه قد أشيع بين الناس أن المسؤولين السابقين وأصحاب الشركات الكبيرة وذوى النفوذ والعلاقات مع السفارات الأجنبية قد وضعوا تحت المراقبة وأن كل من يتردد عليهم أو على بيوتهم لابد أن تطاله المساءلة! هكذا اعتقد الشيخ عَلِى على رغم أنه لم يلاحظ مراقبة من أي جهة إلا أنه سمع أو تصور ذلك، وهو يخاف من كل شئ ولو وشوشة خافتة، هكذا هى الحال، لم يعد للشيخ على الحول والطول والذى يأتى إليه الناس يطلبون المساعدة فى الوظيف أو الدراسة أو العون المادى، وكان يستطيع أن يرفع سماعة التلفون ليتحدث إلى الوزير أو المسؤول المختص أو مدير البنك، وكانت له علاقات فى الديوان الملكى فهو صديق ناظر الخاصة الملكية وهذا ما يضفى عليه سلطة أقوى من المنصب والمال، ولكن ها هو الآن مهجورا حتى من أقرب الأصدقاء بل ربما صار تهمة، هكذا هى الثورات، أن من يحمل البندقية لا يمكنه أن يجادل بالمنطق ولا أحد الآن يفكر فى المال أو المصلحة لأن البلاد أصحبت كلها ملكا خالصا لهم فى ليلة واحدة، ولابد أن هناك جراح وآلام وهناك احقادا ورغبة فى الانتقام، إذ أن كل ذى نعمة محسود كما يقال، وهو لا يستطيع احتمال ذلك، ربما الموت أهون أحيانا من الشماتة، وعَلِمَ الشيخ على أن أغلب

الضباط الذين قاموا بالثورة أو الانـقلاب صغار الرتب ومن طبقة فقيـرة أو متوسطة وتذكر أنه كان يعرف أحـد سكان قريته الذى كان قد طلب منه المساعدة فى إلحاق إبنه الوحيد بمدرسة ثانوية داخلية فى المدينة وكان ذلك المواطن فـقيرا وليس له غير ذلك الابن الوحيد وهو يملك دكانا صغيرا للبقالة الآن فى تلك القرية حسب معلومات الشيخ على، واسـمه الحاج يوسف وقد سمع الشيخ عَلِى ذات مرة من صهره المرحوم عثمان الذى كان يتردد على تلك القرية عندمـا كان والده مريضا أن الحـاج يوسف قد اخبـره أن ابنه صار ضـابطا بل هو رآه خلال واحـدة من زياراته بزيه العسكرى وعلى كـتفه نجـمة وأن الحاج يوسف نفسـه قد تحسنت حـالته المادية بحيث زادت تجارته فى المواد الغـذائية ولم يتحـدث عثمان بالطـبع مع ذلك الضابط الذى رآه إذ أنه لا يوجد ما يجمع بينهـما، وفكر الشيخ على فى تلك الزيارة التى يود القيام بها للقرية إذ ربمـا يتذكره الحاج يوسف الذى كان قد مد له يد العـون عندما طلبـها وأن كان يعـرف أنه فى الواقع لم يكن يساعده بقدر مـا كان يقوم بدعاية انتخابيـة، وكان ما فعله بمثابة رشوة مقابل بطاقـة انتخاب حيث أنه كان يزور القرية من أجل الدعاية الانتخابية لنفـسه فقد رشح لعضوية مجلس النواب آنئذ وهو لم يزر تلك القرية منذ انتخب فى الـبرلمان وما كان له

ان يفكر فى أن يمـد يده للحـاج يوسف لولا أن الثـورة تكسـر النفوس ، هكذا كان يفكر ولكنه اهتدى إلى مـا يبرر ذلك فقال (اللى تغلب بيه ألعب بيه) وهو يحـمد الله أنه لم يساق فى ليلة ظلماء إلى السجن فى ملابس النوم، وقد حدث ذلك مع كثيرين من أمثاله . .

والشيخ على لم يكن يقـود السيارة بنفسـه ولا كان يركب إلى أن يجرى السائق ليفتح الباب، وهذا أصـبح غير ممكن فقد سمع أن ركوب السـيارات والجلوس على المقعـد الخلفى صار محظورا وهو لا يريد أن يجلس بجانب السـائق، وكان يخاطب بتعبـير (على بى) أو (على باشا) أو العضو المحـترم وهذا أيضا انتهى، ومـع أدراكه أن هذه الشكليـات التى يتحدثون عـنها فى الإذاعة والصحف كأنما هى أنجاز عظيم ليست ذات قيمه ولابد أنها سـوف تفقـد احتـرام الناس لبعـضهم وتؤثر على عـلاقات العمل والوضع الاجتماعى إلا أنه مـع ذلك التزم بها اتقّاء للشر كمـا يقول، وقـد اعتـاد أن يرتدى الزى الوطنى كـاملا اقـتداء بالملك، والزى هذا يتكون من خمسة قطع، أى بذلة من الحرير أو القمـاش الممتاز المطروز وعـادة ما يصنع فى مصـر ويسمى (كاط مَلَفْ) أى سـروال وفرملة وزبون وجبة وفـوق الكاط جَرْدْ حيـرير أبيض وعلى الرأس قبعة حـمراء فاتجة أو حـمراء داكنة

حسب الأحوال، وهذا اللباس الآن أصبح يغيض الناس أو ربما الجنود لأنه منسوبا إلى العائلة المالكة، بينما هو فى الواقع وطنيا ولا يفهم كيف يتنكر الناس للشئ الوطنى فقط لأنه يمثل أو يرمز إلى شخص كان يحكم البلاد، وفى داخله يقول، كان يحكم البلاد حسب القانون والدستور حسب اعتقاده، وفى الطريق إلى القرية هناك الكثير من البوابات وهذه البوابات وهى نقاط تفتيش بها شرطة عسكرية وهؤلاء يسألون عن الأسم والعمل ومكان الإقامة وقد يفتشون السيارة أحيانا وذلك كله حماية للثورة كأنما هناك من سيقاوم الثورة أو كأن هؤلاء لا يعرفون أن الليبيين بسطاء وليس لهم تجربة نضالية أو حزبية ولا يمكنهم مقاومة أحد، وكان النظام الملكى قد أنهار فى ليلة واحدة ودون طلقة رصاص واحدة ولا حتى تلويح من أحد باستخدام القوة . .

إذن لابد للشيخ على أن يصطحب معه أحد أصدقائه فى السيارة، لعل وعسى، ولابد له أن يرتدى ملابس عادية، فكر فى ارتداء بذلة أفرنجية ولكنه عدل عن ذلك لأنه لم يرتد هكذا بذلة منذ فترة طويلة ولأن كرشه قد برز كثيرا لا يمكن حشره فى بنطلون أفرنجى، إذن فليرتدى اللباس الشعبى العادى، قميص وسروال أبيضين وفرملة وحذاء، وهذا يسمى (بِلْغَةُ) وفى زيارة

القرية لابد له أن يبحث عن سبب للزيارة لكيلا يثير شبهة، ذلك أن كل شئ هذه الأيام يمثل شبهة وكل إنسان مشبوه إلى أن يثبت غير ذلك، أى عكس القاعدة القانونية المعروفة، ولكن أين القانون من الثورة؟؟.. هؤلاء يريدون حماية أنفسهم وهم يتوجّسون من كل شئ ربما إلى أن يتربعوا على الكراسى، هم يقولون الآن أن الحكم ليس غايتهم ولكن ذلك يحدث مع كل الثورات أو الانقلابات، لابد من رفع لافتة يختبئ وراءها الضباط إلى أن يذوقوا طعم الحكم ... والشيخ على ليس أبلها ولا جاهلا، فقد قرأ عن أغلب الثورات، الثورة الفرنسية والثورة الصينية والإنجليزية والبلشفية إلخ وما لم يغب عن باله أبدا احداث ما يسمى بالثورات فى الوطن العربى، العراق وسوريا ومصر وغيرها فى العالم الثالث، وهو يعرف أن الثورة تأكل ابناءها وخير الثورة غالبا لا يتمتع به الذين قاموا بها أو الذين يؤمنون بالثورة الحقيقية، ولابد له أن يبحث عن طريق، وعن وسيلة، عن حلقة .. وبات الشيخ عَلِى من المهتمين بالناس وأمورهم، فهو يزور الجيران ويصّر على تقديم التحية والسؤال فى حين لم يكن يلقى بالا فى السابق لمثل هذه الأمور، ولعل الخوف هو سبب التقّرب والألفة؟ وكأنه يريد بذلك أن يجمع بين سلامة الآجل وغنيمة العاجل؟؟

كان هناك مـا يشبـه الجدل بينه وبين نفســه، هل يصطحب معــه محمــد افندى إلى القرية علّه يكون عـونا له فقـد كان هذا ضابطا فى الشرطة ولابد أن له علاقات ومعارف هناك؟ اضافة إلى أنه أحيل على المعاش ولم يكن لديه ما يواجه به ظروف الحياة، أم يصطحب معه الحاج عبدالله فهذا شريكه وكان قد أشرف على بناء مدرسة فى المنطقة، كانت الوساوس تجتاح كيانه ولم يحدث أن مر بما هو فيه الان، الخـوف من كل شئ كأنما يوم الحسـاب قد أزف وكان عليــه أن يراجع نفسه فى كل ما سبق فـقد كان لا يلتفت إلى الـناس لكنه لا يتذكر أنه أسـاء إلى أحد، ربمـا كانت هناك أشياء بعيدة لا يتـذكرها، وهنا طرأ على ذهنه المثل الشعبى الذى يقول (دير الخير وأنسـاه وإذا درت الشر أرعاه..) ينتهى إلى قرار أن يصطحب معه الحاج عبدالله ويقـود سيارته بنفسه، يتنهد كما لو كان قد انزاح عن صدره كابوسا ثقيلا ..

ولأن أصحاب المال جبناء غالبا نهّازون للفرص كما اعتاد الناس أن يقولوا، فقد كاد الشيخ على أن يقبّل يدى ذلك القروى سائلا عن كل شئ، ما يعرف وما لا يعرف وقد تحاشى الـسؤال عن ابنه مـباشرة بل سـأل عن العائلـة والصحاب وأهل الـقرية والتجارة مصطنعا ابتسـامات جافة كما سأل عن الحرث والحصاد وأن لم يكن الوقت وقت زرع أو حـصاد، وكان الـحاج يوسف

قد فـوجئ بتلك الزيارة وأدهشه أن يرى الشـيخ على الذى كان يتأفف ويتـحرّج كثيـرا قبل أن يمد يده لأمثـاله، يراه الآن بهذه البساطة والتواضع وقد رحب بهـما وجعل يدور فى دكانه باحثا عن كرسى قديم اعتاد أن يجلس عليه لـيقدمه للشيخ عَلى بينما جلس الحاج عـبدالله على صندوق خشـبى، وطفق الشيخ على يتـحدث عن تلك الأيام الخـوالى وكيف كـانت وربما مـازالت الحياة بسيطة هادئة فى هذه القريـة على عكس المدينة المزعجة المزدحمة بالناس والسيارات . .

كانت هناك عوامل وإحـساسات كثيرة تجتـاح كيان الحاج يوسف ومع ذلك فقد اكـتفى بتقديم الشاى والأبتـسام كرد على مجامـلات الشيخ عَلِى وهو يعلم تماما أن حاجة مـا قد جاءت بالشيخ عَلِى ورفيقه لأنه لم يكن يتردد على هذه القرية ومثيلاتها وهؤلاء الناس لا يأتون إلا وقت الانتخابات البـرلمانية والشـيخ عَلِى حتـي فى هذه أصبح فى السـنوات الأخـيرة يكتـفى بإرسال مندوبا عنه، وهؤلاء الـذين كانوا يـنوبون عنه كـانت مهـامـهم تنحصر فى إعـداد بيوت الضيافة والدعاية الانتخـابية وهم أيضا يتخذون وكلاء لهم فى المنـاطق والقرى، والوكلاء هؤلاء كانوا يذبحـون الذبائح ويقـدمـون الأكل ويشـترون الأصـوات وبعـد الانتخابات يتوسطون فى بعض المعاملات الحكومية للبسطاء . .

لم يكن الشيخ عَلِى هادئ البال وقد ظهر ذلك فى جلسته وحركة يديه وكلامه الذى لا رابط فيه فقد كانت تأتى الكلمات متباعدة غير متصلة بموضوع وكان شارد البال والذهن، وقد لاحظ ذلك الحاج يوسف بإحساس وفكر القروى النقى، ورغم إلحاح هذا الأخير فإن الشيخ على ما كان موافقا على البقاء لتناول الغذاء مع أنه جاء خصيصا لزيارة القرية، أى فى الواقع للقاء الحاج يوسف وبعض الناس الآخرين، وكان ذلك اليوم يوم جمعة وهى اليوم الذى يلتقى فيه أهل القرية، الكبار منهم وبعض الصغار فى مسجد القرية القديم وكان الشيخ على فى أيام زمان قد وعد ببناء جامع جديد أثناء حملته الانتخابية ولكنه سرعان ما نسى ذلك الوعد بمجرد انتهاء الانتخابات على الرغم من أنه أصبح نائبا وصار يذكر باسم النائب المحترم، كما أنه لم يحدث أن أدى الشيخ على الصلاة فى هذا المسجد المفروش بالحصائر القديمة إلا مرة واحدة وحتى فى تلك المرة لم يقبل أن يتوضأ فى الجامع وأنما توضأ فى البيت وكان دائما يرتدى اللباس الوطنى المزركش الكامل، وفى أيام الجمعة وهى العطلة الرسمية فى البلاد عادة ما يقوم الأبناء بزيارة عائلاتهم خصوصا أولئك الذين يعيشون فى المناطق البعيدة وكانوا فى المدن وأهلهم فى الدواخل وهكذا فقد فوجئ الشيخ على بثلاثة ضباط

شبان يدخلون الدكان وكان أحدهم ابن الحاج يوسف ويدعى موسى وهو فى مقتبل العمر مربوع القد ذا حاجبين كثيفين وعينان عسليتان ثاقبتا النظر يتحرك بهدوء شديد ويظهر عليه التدين من خلال كلماته وأن لم يكن مهذارا وقد قدمه الحاج يوسف باسمه، موسى بن الحاج يوسف بن أحمد، وكان الآخران وهما زميلاه على شاكلته وفى نفس العمر تقريبا. وكل منهم يرتدى الزى العسكري وعلى كتفيه نجوم تدل على الرتب العسكرية، وعندما قدم الحاج يوسف ضيفيه الشيخ على والحاج عبدالله بادر الشيخ على بالقول أنهما من المدينة ورسم ابتسامة عريضة على وجهه ظهرت مصطنعة بلاشك، وأضاف أنها فرصة طيبة أن نلتقى بالرجال الذين غيروا وجه التاريخ فى ليبيا، قال ذلك وهو يشبك يديه على صدره كأنه واقفا لأداء الصلاة، ولم يكن بالطبع يعرف ما إذا كان هؤلاء الضباط من أعضاء الثورة أم لا، إلا أنه عندما نظر إلى رتبهم الصغيرة تصور أنهم لابد أن يكونوا كذلك أى من ضباط الثورة وأن لم يكونوا كذلك فهم بالضرورة ضباطا عاملين ولن تضيره تلك المجاملة..

بعد السلام والتحيات لم يكن هناك مكان للجلوس فى الدكان وقد اقترح موسى على زميليه الذهاب إلى البيت لتناول الشاى والوضوء ثم الذهاب إلى الجامع، انصرفوا وبقى الحاج

وضيفيه وقد طفق الشيخ على يتحدث عن دور هؤلاء الشباب فى المستقبل والعمل العظيم الذى قاموا به وتمنى أن يستفيدوا من أهل الخبرة خصوصا فى المفاوضات مع الانجليز بشأن الجلاء الذى يركّز عليه الإعلام الليبى هذه الأيام، وأضاف، الانجليز ثعالب ودهاة فى السياسة والمراوغة والكذب ولابد من مواجهتهم بذوى الدهاء السياسى والخبرة، وقد تجاهل الحاج يوسف ذلك الكلام وأن قد كرر دعوته للغذاء وهنا وافق الشيخ علِى دون تردد واقترح أن ينتقلوا إلى الجامع للصلاة وهى مناسبة لتحية رجال القرية . .

وأثناء أداء فريضة صلاة الجمعة وكان الشيخ على قد تحدث مع بعض المصلّين قبل أن يدخل الجامع بينما دعى الحاج يوسف الإمام والآخرين إلى الغذاء فى البيت مع ضيوفه . . وكالعادة فقد اخرج الشيخ علِى مسبحة طويلة بعد أداء ركعتى السنة وبدأ يحرك حباتها بانتظام ومعها كانت شفتاه تتحركان وأن كان فى حقيقة الأمر شارد البال، وعندما أقيمت الصلاة وكان يتقدم الصفوف قرأ الإمام بعد الفاتحة سورة الشورى وعندما وصل إلى الآية ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ حتى انقبض صدر الشيخ على كأنما هو

المقصود بالمترفون، ولما قضيت الصلاة توجهوا إلى سكن الحاج يوسف وهو كبيوت بقية القرية مبنى بالطوب الأبيض، به حجرتان وصالة للضيوف، تسمى مربوعة، وهو نسبيا صغير وأن كان محاطا بأرض مزروعة وبها بعض الأشجار وقرب البيت توجد حظيرة بها أغنام وكان الحاج يوسف قد ذبح شاة إذ لم يكن من عادة أهل القرى شراء اللحم من القصّابين فى مثل هذه الحالة عندما يكون هناك ضيوف من خارج القرية، وغالبا ما يكون الغذاء أو العشاء (كسكسى) وهذه آكلة رئيسية فى ليبيا ويأكل الضيوف فى (قَصْعَة) واحدة إذا كانوا في حدود خمسة أو ستة وإذا زاد العدد عن ذلك زيدت (القِصَاعْ) والكسكسى لابد أن يكون معه بيض مسلوق وبطاطس وخضار مع لحم الخروف ولابد أن يكون اللحم مقطع حسب مفاصل الشاة (كتف وساق وفخذ وهكذا) وكان على الحاج يوسف أن يجامل ضيوفه وإذ قد رأى الشيخ عَلِى واجما ولعله أدرك سبب وجومه فقد تبسط معه فى الكلام وقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) كرر الشيخ على صدق، صدق الله مولانا العظيم..

ويعد تناول الغذاء يبدأ إعداد الشاى الذى يقدم فى كؤوس

صغيرة تسمى (طاسه) وهذا يأخذ بعض الوقت بحيث يجرى الحديث أو النقاش أثناءه، وكانت فرصة للشيخ عَلِى بعد أن سأل الإمام عن أحوال الجامع والناس وعن القرية وتلك المدرسة التي كان قد ساعد على بنائها وقد عرّج على فترة الانتخابات وكيف كانت تجرى وكيف أن مرشح الحكومة دائما ينجح بالتزوير كأنما الذى يقوله لا ينطبق عليه وهو يؤكد أنه على الرغم من نجاحه فى الانتخابات ثلاث مرات لم يكن من بين مرشحى الحكومة ولا زوّر الانتخابات، كما تحدث عن المجلس الأخير وكيف حُل البرلمان بسبب المعارضة التى ظهرت، وعندما تحدث عن المعارضة كان يقول، نحن فعلنا ونحن طالبنا ونحن اقترحنا ولم يفوته أن يتحدث عن دوره فى تقديم استجواب واقتراح مشروع للحكومة بشأن القواعد الأجنبية وأن الحكومات المتعاقبة لم تكن صادقة النية فى التفاوض مع الأنجليز وإنما هى كانت مرغمة على ذلك بسبب ضغوط المعارضة فى البرلمان، وكان ينظر مباشرة فى وجوه أولئك الضباط عندما كان يتحدث عن الانجليز والقواعد الأجنبية وفى نهاية الحديث قال أن الله قد قيّض لنا فرصة التخلص من القواعد بفضل الثورة المباركة وأنه كان يتوقع ذلك وهنا قال أحد الضباط الثلاثة أنه يوّد أن يسمع نشرة الأخبار وأتفق ثلاثهم على

سماع إذاعة القاهرة وكان فى هذا مؤشرا لا ريب فيه لدى الشيخ عَلِى الذى كان يوّد سمـاع إذاعة لندن رغم أنه لم يقل ذلك، أن هؤلاء الضباط متـأثرون بجمال عبد الناصر ومصـر، وقد احضر الحـاج يوسف جهـار راديو كبـيـر مربع يشـبه صندوق الشـاى السـيلانى وعندما وصلّه بالكهرباء طلب من ابنه موسى أن يبحث عن الإذاعـة قائلا أن نـظره ضعـيف ولا يسـاعده علـى تثبـيت المؤشر على مكان الإذاعة . .

وعاد الشـيخ على إلى الحديث بعد سـماع نشرة الأخـبار وكانت إذاعة القاهرة قد ذكرت أن الثـورة الليبية جادة فى مطلب إجلاء القوات والقواعد الأجنبية ويظهر من ذلك جليا أن القاهرة تقف وراء المطالب الليـبية كـما أن تعليق الإذاعة قـد ركّز على تاريخ الاستعمار البريطانى فى الـمنطقة مذّكراً الناس بأن الساسة البريطانيون هم الذين كانوا ومازالوا أصحاب مبدأ (فرق تـسـد). .

بدأ عَلِى مرة أخرى فى الحديـث وقد ذكر أن الذين كلّفوا بالعمل فى مناصب وزارية أشخاص غير معروفين فى البلاد وأن الثورة لابد لها أن تسـتعين بالسياسيـين وأصحاب الفكر والرأى فى البـلاد وأنه ليس كل من عـمل مع النظام الملكى خـائنا أو عميلا وأشار مـرة أخرى إلى أولئك الذين كانوا يعارضون داخل البرلمان وخـارجه وعلى الرغم من أن الحضور كانوا يسـتـمعون

إلا أن أحدا لم يشارك فى الحديث ولا علّق بشئ كأنما موقفهم ذلك يعنى احتجاجا على رأى الشيخ عَلِى الذى كان يوجه كلامه بشكل خاص إلى أولئك الضباط الثلاثة مداولا نظراته بين هذا الوجه وذاك، وقبل الانصراف ذكر موسى وهو ابن الحاج يوسف أنه لا يرى فائدة من الانتخابات وأن الديموقراطية الغربية لا تصلح للبلاد العربية والدول النامية وأن لم يتح فرصة للشيخ على للمناقشة، إلا أن هذا الأخير لاحقه بالقول أنه لا توجد ثورة أو تغيير فى العالم لم يستفد من أصحاب الخبرات القدامى، وقد انصرفوا وكان الشيخ على قد عرض عليهم مرافقته فى سيارته إلى المدينة ولكنهم اعتذروا بلباقة إذ قالوا أن هناك سيارة فى انتظارهم كما عرض عليهم المساعدة والتعاون فى أى شئ آخر وقد أخرج بطاقة قدمها لاحدهم بها عنوانه وأرقام هواتفه . .

وكان الشيخ على قد فهم أن أحد هؤلاء الضباط ينتمى إلى قبيلة هم أخوال من طرف والدته وعرف اسم والد ذلك الضابط ومكان إقامته وهو ما اعتبره مكسبا كبيرا قد يخرجه من الأزمة التى يعانى منها، أنها الخوف من كل شئ، من الماضى والمستقبل بل والحاضر، فإذا كان أحد الضباط ولو تلميحا قد افهمه بإنهم ضد البرلمان والانتخابات والديمقراطية الغربية فلابد

أنهم ينوون محاكمة رجال العهد الماضى وإذا كانوا يحظون بتأيد عبد الناصر ومصر فلابد أنهم سينهجون نفس النهج وذلك يطال المال والأملاك وربما حرية الأشخاص، وهو يقول ، المهم أن نجتاز المرحلة التى يأكل فيها السيف غمده . .

وعندما عاد الشيخ عَلِى ورفيقه إلى المدينة تصادف وجود شخص كان معروفا فى المنطقة باسم (خليفة البهلول) أى خليفة الأهبل أو الأبله، وكان هذا يرتدى أسمالا بالية ويحمل على كتفه بندقية قديمة وينتعل حذاء قديما يشبه ذلك الذى كان ينتعله جنود بروسيا وعادة ما يضع قبعة دائرية على رأسه وهو دائم التجوال ولا يستقر فى مكان إلا إذا أعياه المشى وحينئذ ينام فى أى مكان، تحت شجرة أو قرب حائط أو على مقعد فى حديقة عامة أن وجد، وكان أثناء تجواله يتوقف قرب أى جمع يراه ويهتف قائلا (الحق أزناد والشرع أفلوس واللى ما عنداش أفلوس يمشى محبوس) بمعنى أن الحق للقوة والقانون مع المال ومن لا يملك هذه أو تلك يذهب إلى السجن، ولم يكن هناك من يهتم بهذا الكلام الذى يردده خليفة البهلول حتى من أولئك الذين يعطفون عليه ويقدمون له بعض الأكل وهو لا يأخذ أى نقد على الإطلاق ولا يأكل إلا قليلا، وعندما التقاه الشيخ على توقف ليسمع منه ما يمكن أن يقول وربما هذه هى المرة الأولى

التى يفعل فيها مثل هذا الفعل، وقد تناهى إلى سمعه أن خليفة البهلول قـد غير مـا كان يردده فأصـبح يقول (اليد مـا تعاندش المنجل واللى يصـبر يلـقى) أى أن اليد لا تغلب الحـديد ومن يصبر ينال . .

علّق الشيـخ علِى قائلا، والله هذا موش بهـلول وإنما هو حكيم، وحاول التـحدث مع خليفة البـهلول هذا ولكنه انصرف لأن خليفـة البهلول لا يتبـادل الحديث مع أحد فهـو فقط يردد تعبيـرات محددة وينصرف فى اتجاهه . . تفاءل الشـيخ على مما سمع، حـقا لابد من الصبـر لأن القوة والغلبة أصـبحت فى يد الجند، وإذا كانت القبيلة متمفصلة فى المجتمع، مجتمع ما قبل الثورة وكان لزعماء القبائل شأن كبير وكانت المناصب الحكومية توزع لاسترضاء تلك القبائل فإن الأمر لابد أن يكون مختلفا بعد الثـورة ولو لبـعض الوقت، ويلاحـظ من تشكيل أول وزارة أن المعيار قد تغير .

وعلى الرغم من أن الشيخ على قـال أن هؤلاء الذين عينوا فى مناصب وزارية غير معروفين فى البلاد إلا أنه يعرف تماما أن ما قـاله لم يرق لأولئك الضبـاط ولابد أنهم فهـموا أنه يقـصد بالناس المعروفين أولئك الذي يتزعمون القبائل أو المبرزين فيها ومع ذلك فـهو على قناعـة تامة بأن الروابط القـبيليـة والأسرية

ستبقى وستكون ذات تأثير كما كانت وأن هؤلاء الناس الذين جاؤا بهم ليشغلوا مناصب وزارية لن يستمروا طويلا فلا يمكن أن يكون من هرب من البلاد وربما لأسباب شخصية كالاختلاس أو الرشوة مناضلا ولابد أن الخلافات ستظهر سريعا ويبدأ تفتيش الأوراق . .

ولقد كانت الحزبية محرّمة فى العهد الملكى وها قد رفعت الثورة شعار منع الأحزاب بينما هناك من بين الوزراء الجدد من كان ينتمى إلى حزب ما، بعثيون، شيوعيون، وأخوان مسلمون وتحريريون . . إلخ، وهنا توقف قليلا ليذّكر الأسماء فوجد أنه لا يوجد ناصرى واحد بين أولئك الوزراء وذلك أمر لا يمكن أن يكون فى حساب الغفلة أو النسيان ، وربما هو نوع من الدهاء والحنكة، ولكن من أين لهؤلاء الناس هكذا شئ؟ والعسكريون بطبيعة تربيتهم العسكرية يقررون وينفذون دون بحث ولا لف أو دوران، أيمكن أن يكون وراء ذلك استشارات ونصائح، وممن تكون يا ترى؟؟ أم أنها نوعا من التورية بحيث لا يستثار الأنجليز والأمريكان؟ وهل يكون لعبد الناصر فى ذلك رأى؟ ربما فهؤلاء يتبعون منهج عبد الناصر فى السياسة إذ كان قد غازل الأمريكيين فى حين كان يشدد على الانجليز وتعاون مع الأخوان المسلمين في وقت كان يضرب فيه

بقية الأحزاب، واستخدم محمد نجيب واجهة للحكم بينما كان يمسك بكل خيوط السلطة فى يده؟ ولكن ليبيا ليست كذلك وإذا كان هناك من بين رجال ثورة عبد الناصر من مارسوا العمل الحزبى والسياسى واشتركوا فى حروب وانخرطوا فى تنظيمات فإنه لا يمكن أن يكون بين هؤلاء الضباط أحد كان قد مارس شئ من ذلك بل أنهم حتى فى مجال عملهم لم يكونوا قد اشتركوا فى أى حرب أو قتال، ويعود فيقول، ولكن السياسة بعد دعايات عبد الناصر وصوت العرب أصبحت الشغل الشاغل لكل العرب صغيرا وكبيرا وربما كان هؤلاء على اتصال بعبد الناصر حتي قبل أن يقوموا بعملهم هذا؟ ويتذكر أنهم أتوا بضابط كبير فى بداية الثورة وعينوه رئيسا لأركان الجيش فى حين كانوا قد اعتقلوا أغلب الضباط من ذوى الرتب العالية وهو ما كان قد فعله عبد الناصر فى بداية ثورته !!؟

كانت هذه الأفكار تنتاب ذهن الشيخ على عندما وصل بيته وكان قد توقف فى الطريق ليزور أحد الأضرحة تبركا وقد كانت هذه عادة منتشرة ومعروفة بين الناس حتي أن ضريح أحد الأولياء كان ينتصب فى وسط طريق عام فى مدينة طرابلس نفسها ولم يجرؤ أحد على إزالته وكانت تدور كثير من القصص والروايات عنه، فقد قيل أن أحد المسؤولين فى البلدية قد أمر

بإزالة ذلك الضـريح فاصيـب مصراع دائم وظل يـصرخ إلى أن مات وأن التراكتور الذى جئ به لازالة الضريح قد توقف قبل أن يهدم حجرا واحدا ولم يقو أحـد على تحريكه بعد ذاك، كما أن الشيخ على كان قد حاول التحدث مع خليفة البهلول ولكن هذا لا يجيب علـى الكلام أو على سؤال أحد، والشـيخ لا يريد أن يفوته شيئـا لا يـتفيد منه وترتعد فرائـسـه عندما يدخل بيته ذلك أن هاجسا لم يفـارقه أبدا وهو أن جنديا ما قد يأتـى ليجره إلى المـعتـقل فى أى ساعـة من الليل وأنه قـد ينسى هناك فهـؤلاء مشاغلهم كثـيرة وقد شاع تعبير أنـه من السـهل إدخال أى إنسان إلى السـجن ولـكنه من الصـعب إخـراجـه مـنه ذلك أنه أمـام شعـارات الثورة يتعطل كل شئ ويـسـهل كل شئ، ولم يعد هذا يذهب إلى مكـاتب شـركـاته حـتى كـأنه قــد زهد فى المـال والاعمال، ولا يخرج من البيت إلا نادرا وإن كان يلتقى شركاءه فيه، فهو لا يرتاح لرؤية الجنود المتدججين بالسلاح فى شوارع المـدينة وتلك السـيـارات العـسكرية التي كـانت توقف قـرب المجمعات والمحلات العامة والمـبانى الحكومية كما أنه يشمئز من سمـاع الأناشيد فى الإذاعة ناهـيك عن المسيرات والهـتاف والشـعارات، وقـد سمع أن أغلب كـبار الضـباط قـد اعتـقلوا وأودعـوا السـجـون وسـعيـد الحظ منهم من أوقـف فى بيتـه،

وبطبيعة الحال فإن الأخبار عندما تتناقلها الألسن يحلو للبعض المبالغة فيها، فقد قيل له الكثير عن القتل والاعتداءات على الناس والبيوت، ولابد أن هؤلاء الذين اعتقلوا سيقدمون إلى محاكم أو محكمة بتهم مختلفة، وصار كفيره يسمع عن إفساد الحياة السياسية والعامة والارتباط بالأجانب والتآمر على القضية العربية والأمة العربية بل أن هناك همسا يدور عن تواطؤ مع الأنجليز عندما استخدمت قاعدة العدم سنة ١٩٥٦م أثناء العدوان الثلاثي على مصر.

داخلته الشكوك والأفكار السوداء وربما الغضب ورغبة فى البكاء ولكنه منع دموعه فلا يجوز لشيخ وقور كان ممثلا للشعب أن يبكى !! ولماذا فهو مازال حر طليق وربما ليست هناك مآخذ عليه ولو كانت هناك مآخذ عليه ما كانوا قد انتظروا كل هذه الفترة . . ولكن لعلهم مازالوا يبحثون فى الأوراق والملفات وهكذا فإنهم قبل أن يعثروا على شئ ما يجب أن يجد طريقه إلى عقولهم أو بطونهم وهو لا يعدم الوسيلة إذا وجد المنفذ، ومنفذه هو ذلك الضابط الذى يتصل به من ناحية القبيلة، والوصول إليه لابد أن يكون عن طريق والده وأهله وذلك لن يكون عسيرا، وهنا تنفس الصعداء كأنه وجد حلا لمشكلته، وكان يعتصر رأسه بين يديه متفكرا، وفى ليالى

رمضان يحلو السهر واللقاءات والتزاور ولقد كان أول رمضان بعد التغيير قد هل قبل أن تتوضح معالم النهج الجديد ماعدا تلكم الاجراءات ضد بعض المسؤولين فى العهد الملكى من مدنيين وعسكريين، وأن كانت الإذاعة تردد الشعارات والمسيرات ترفع اليفط وصار التركيز على الوجود الأجنبى الأمريكى الانجليزى الإيطالى وهذه جميعها مشاكل كبيرة ولابد أن تكون البداية التى تنطلق منها خطوات هؤلاء الضباط، ولقد أحس الشيخ على بأنه نفذ بجلده ، فقد ربط علاقة مع بعض الأقارب ولهؤلاء خيطا يؤدى إلى رجال الثورة أو النظام الجديد، وفى المجتمع الصغير لا يصعب على الإنسان معرفة أن سلسلة الروابط الاجتماعية متصلة ووثيقة، وهذه بالنسبة له قد بدأت ربما مع ذلك اللقاء فى القرية ومعرفة الصلة بذلك الضابط الذى كان أحد الثلاثة الذين زاروا الحاج يوسف . . .



(٢)

هكذا كـان شكل الحـياة ووضع المـجـتمع عندمـا بدأت شركـات النفط البـحث عن هذه المادة الثـمينـة، وسرعـان ما اكتـشف النفط بكميات تـجارية كبـيرة، وبين فقـر مدقع وغنى فاحش انقلبت المـوازين واختلفت سبل الحيـاة، وكان لابد أن يظهر نوعان من السلوك فى المجـتمع الذى كان هادئا رغـم فقره فصار ثائرا متحركا يجـمع الفقر والغنى فى وقت واحد، القبول والمغامرة والتحدى، انتهازية واستغلال وإثراء باى شكل وتـشبث بكل ما هو اجنبى فى مواجهة مشاعـر قومية وفوران قومى ربما يكون جامحا . .

فى مثل هذا الجـو حدث التغيـير وقد مثل روح التـحدى والمغامرة والضجر، وكانت الأعـصاب مشدودة والأفكار مشتتة والتحرك حـذرا، قواعد وقوات وشركات نفط وأمـوال ومصالح لا يمكن التخلى عنها بسهولة . .

وكانت الطوابير متدافعة، المهرجانات والمسيرات وخطب التأييد والبرقيات، ازدحام الأحداث وسرعتها تمثل مهرجان دائم وعرس كبيـر، فقد خرجت القوات البريطانيـة والأمريكية وكان لذلك دوى ورنين طغى على كل شئ . .

بدأ الناس يتحسسون مواقع أقدامهم لأن الأرض تهتز، وقد ظهرت الخلافات وبدأت تسوية الحساب وتفتيش الدفاتر القديمة، والخلافات هذه لا تحتاج إلى كثير من الأذكاء فقد صار طابور المستفيدين يشد الحبال ويؤجج النعرات ويهول من أصغر الأمور بحيث لا يكون هناك تردد فى أى إجراء، وعندما يحدث الخلاف بين أصحاب العمل الواحد يبحث كل طرف عن أنصار ومؤيدين ويكون للقبيلة أو العائلة أو المنطقة شأن كبير فى ذلك، وهذا ما كان يبحث عنه الكثيرين من أمثال الشيخ على، وبدأت الوشوشات تدور هنا وهناك، وحدث التشكيك وظهر أنصار (أوديسيوس) وأنصار (بيونسيوس[1]) وصارت الأجهزة تشبه الاقطاعيات يستحوذ عليها عدد من الناس كانوا غالبا من الانتهازيين الذين يؤيدون هذا الطرف أو ذاك دون اهتمام بأمر وطنى أو قومى وكان كل تيار يجذب الأمور فى اتجاه بحيث تتوسع هوة الخلافات، فرفعت شعارات تمثل البادية بكل ما فيها كرد فعل على الأجنبى أو على المدنية بما فيها من صخب وضوضاء ومن تقدم وإنتاج، وطرحت أفكارا جديدة فى مقابل ما كان سائدا، وتم انتهاج مسالك جديدة كأنما أريد بذلك

١ - اوديسيوس آلهة الدهاء فى الاساطير اليونانية. ٢- وبيونسيوس آلهة العربدة.

صياغة الحياة وألباسها ثوب قديم. . وذلك بطبيعة الحال متوقع إذ أن الثورة أو التغيير لابد أن يناقض ما كان سائدا فى الغالب، ولكل جديد يهرج ولمعان وقد أطيح بمن توقف أو ألتفت إذ أن التيار قوى عارم، ولقد تشكلت الحكومات وتغير الناس وتبودلت المواقع بين مدنيين وعسكريين وتغيرت المناصب والمسؤوليات لأن النصر عندما يتحقق تطل رؤوس كثيرة تدّعى لنفسها مواقف وبطولات وكانت مداولات محكمة الثورة ومحاسبة رجال العهد السابق قد تركت نتؤات ودمّل على جسم النظام الجديد إذ لم يظهر فيها ما يشد انتباه الناس ويثير حفيظتهم ليس لأن الثورة لم تأت فى وقتها وليس لأن النظام السابق كان مرغوبا ولكن لأن المحكمة كانت آخر من يعْرف أو يعلم وكانت هيئتها أضعف مواقف من المتهمين أنفسهم على الرغم من بشاعة تهمهم، ولقد أرادت المحكمة أن تدين الصحافة دون أن تكون قد أطلعت على ما كانت تكتب تلك الصحافة كأنما هيئتها قد جاءت من المريخ.

ولقد كانت شعارات الثورة قد اكتسبت هالة كبيرة وصار موقفها قويا ومرغوبا من الشعب خصوصا فيما يتصل بالقواعد

الأجنبيـة فقد أصبح من المـحتم أن يسيـر الناس فى ظلها دون تردد ، على الرغم مـن أنهم فى الغـالب كـانوا يهللـون للنظام القديم ولم يغيروا شـيئا غير معانى الـكلمات والأسماء، وليس هناك أسهل من توليـد الكلام، وصار الشيخ على يتـحدث عن الاشتـراكية الإسـلامية ويخلط بين الوحـدة الإسلاميـة والوحدة العربية وهو فى الواقع لا يؤمن بهذه أو تلك وبذلك وجد مكانه فى مجالس الليل وقنوات القبيلة، ولله فى خلقه شئون.

استيقض الفقى مصباح وكان قد نام طويلا كأنما حدث له مـا جـرى لأهل الكهف ليـجـد أن كل شئ قـد تبـدل، الناس والأســمـاء والشوارع والأحـيـاء واللبـاس، والأكل والعـادات والتقاليد وحتى الكلمات، لا شئ غير ذلك المسجد العتيق الذى أضيف إليه بناء صغير محادى شوّه شكله القديم المألوف وربما كان ذلك مـقصودا أو لأن طريقـة البناء أيضا اختلفت، والمـمر الترابى الذى يخترق المـقبرة القديمة متعرجـا كما هو، وشجرة الزيتون ذات الجـدع المجوّف، هذا كل ما بقى من عـالم الفقى مصباح...

لم يعد للحياة طعمها ولا للعلاقات حرارتها ولا للكلمات

معانيها وللطعام نكهته، فقد حل محل الدكان الصغير الذى يبيع
تلك الحاجات المعتادة وصاحبه الذى يجلس على الأرض
مفترشا (غَرَارَةٍ) بلباسه الوطنى، حل محله ما عرف بالسوبر
ماركت الذى ابتنه الحكومة من معدن أبيض لامع وجعلت فيه
حشدا من الناس يهرولون بين طوابقه وهم فى عجلة من أمرهم
وقد امتلأت الرفوف بأنواع غريبة من البضائع وصار الناس
يتزاحمون أمام هذا (السوبر ماركت) يشترون كل شئ كأن
سنوات فرعون العجاف قد أزّفت، صار الفقى مصباح يبحث
عن شئ مألوف يدل على مالوف يدل على زمانه، نظر إلى ذلك
الصندوق الخشبى المربع الذى علاه التراب واحاطته العناكب
بخيوطها المتموجة وتلك البطارية التي أصبحت كالحجر
المحروق، لا يوجد أحد بالقرب من مكنه فقد خرج الناس
إلى الأطراف وابتنوا بيوتا من الحجارة البيضاء، بيوتا تشبه
الصناديق، لا أثر للخيول أو الجِمَالْ وأنما علب من الصفيح
تتحرك فى كل اتجاه مثيرة الغبار والدخان والضوضاء، علب
تتحرك بسرعة وتقطع المسافة التى كان يقطعها الجَمَلْ فى شهر
خلال ساعات، وهؤلاء وأن انتقلوا إلى هذه العلب مازالوا بفكر

وعقل راكب ا لجَمَلْ، والذى تبّدل هو المظهر والسلوك، مظهر خارجى يحوى بداخله عفن وتناقض وسلوك مشين لا يقيم وزنا لشئ . .

جعل يتمشى فى اتجاه المسجد عبر المقبرة والممر المترب الذى لم يعد ينبت على أطرافه العشب ربما لأن المطر لم يعد يزور هذه الأرض، مازالت تلك الأصياخ الصدئه التى تحيط أحد القبور، لعله لأحد الأولياء، منتصبة وسط المقبرة، مصابيح الزيت أو الكار لم تعد موجودة فى المسجد وقد استبدلت بكرات بيضاء تبهر النظر، شكلها كالبيض وأن كانت بعنق تتعلق منه بالسقف وشكلها كبير . .

عندما ارتفع صوت المؤذن خيل للفقى مصباح أنه صاعقة فقد كان الصوت عاليا، وقد اكتشف أن المؤذن يقف أمام آلة تبعث الصوت من خلال شئ كالقرن المقلوب مثبت على الحيطان الخارجية يجعل الصوت عاليا مزعجا، تراى له أنه ليس صوت المؤذن الذى ألفه فيما سبق، دخل المسجد وكانت هيئته غريبة، رجل ملتحى يغطى وجهه شعر كثيف أبيض وغير منظّم يتدلى على صدره فى شكل فوضوى وإن كانت عيناه تبرقان

وخطواته واثقة ثابتة وقد أصاب يديه نوعا من الاختلاج، استدارت رؤوس الجالسين فى المكان تنظر إليه فى استغراب، لم يأبه للنظرات المتفحّصة والأفواه المشدوهة وهمهمات المتقاربين..

رجل كأنه من عالم آخر

بعد الصلاة راح يسأل

أين البضائع التى كانت تباع، القمح والشعير والشاى؟

لم يكن قد رأى العملة النقدية المتداولة وبالتالى فهو لا يميزها ولا يملك شئ منها، فى المحلات (السوبر ماركت) لمط مضاءة كثيرة ما دراها فيما سبق، نغمات وأصوات الراديو ليست كما كانت، فلا نشرات تهز المشاعر وتشحذ الهمم، أين صوت العرب وأمجاد يا عرب أمجاد؟

وهل توحدت الأمة العربية ولماذا لا يسمع صوت جمال عبدالناصر؟

أين أعراس الثورة؟

وهل أكل السمك فى البحر الأبيض المتوسط أو الأحمر لحم الاسرائيليين وفقأ عيونهم؟

وهل تحررت فلسطين وعاد إليها أهلها؟

رجل خارج الزمان يسأل عن أشياء لفّها النسيان، فلا جلسات الشاى وحكايا أبى زيد الهلالى والزير سالم أو الزناتى خليفة، ولا الثورة والثوار ومحاربة الانجليز فى السويس وحى كريتر، ماذا عن الثورة فى الجزائر؟

وماذا حدث فى عناق الثورات الثلاث عندما التقت فجر يوم مجيد؟

كل هذه الأمور تدور فى راسه ولكن لا أحد يذكر أو يتذّكر . .

عاد إلى داره وهى ليست كأى دار فى الزمن الذى يراه جديدا . .

هى فى الواقع حفرة تحت الأرض تسمى (داموس) فى عهد ما قبل نومته، جعل يتفحص الأشياء وهى عبارة عن ذلك الصندوق الخشبى المربع الذى لم يعد يظهر منه إلاجزء صغير بسبب ما تراكم عليه من تراب ولم يشأ أن يمسّ أو ينفض التراب كأنما أراده شاهدا على ذلك الزمن الذى انقضى، أما الحجر الأسود الذى يقبع بالقرب منه ويتصل به بخيوط أكلها

التكلّس والصدأ وصار جزئها الأعلى كالوجه الذى حفرته حبات مرض الجذرى ولـقد طفح على جنباتها زبد شكله بـرونزى كما لو كانت محترقة فى فرن ذى حرارة عالية جدا. .

وفى ركن من الدار كـان هنـاك عـدد ثلاثة من الحـجـارة المسـتديرة بينها حطب مـحترق وينتـصب فوقهـا قِدْر صنع من الطين تعلوه أتربة وكـان لون رماد الحطب أشـهب وقد اخـتلط أيضـا بالتراب، وعلى الأرض فـى جانب من الدار (سِـدَّة) هى عـبارة عن جـذوع نخل قُـصّت وقد وضـعت مـتــاوية أو قل مصطّفة بالتحـادى لتمثل سريرا فوقه خيش محـشو بالتبن يـسمى (فراش) ويظهر أن الفئران كانت قد سكنته لفترة ما ولما لم تجد ما تأكل هجـرت المكان، وعلى حافة السـرير منّشة صنعت من سعف النخـيل وبالقرب منها مـصحف قرآنى قديم، مـد الفقى مصباح يده لينفض الغـبار الذى علاه، ثم ترك كل شئ على ما هو عليه، وكـانت هناك آنية ماء صنعت أيـضا من الطين وتلك هى أدوات الطبخ والأكل فى ذلك الزمان الغابر. .

تناول عكازه وخرج مسرعا يبحث عن شئ ينبئه عن الزمان الذى ظهـر فيه، الذى يرى إلـيه وهو يمشى يـخاله يسيـر على

خمسة أرجل بسبب انحاءه فقد تقوّس ظهره وصارت يداه طويلتان ووجهه يكاد يلامس الأرض.

ولكن عمن يبحث ؟

هل يمكن أن يجد أولئك الذين كانوا يجلسون على الدّكة الخشبية أو يفترشون غَرَارةٍ على الأرض أمام الدكان؟؟

أنه لا يجد إلا أناس كأنهم الجنون وهم يعملون فى عجلة من أمرهم ويرى الأشياء كلها ازرار وأسلاك ومعادن، وهو فى مظهره كأنه من عالم آخر أو هو صورة إنسان من زمن غير الذي يعيش فيه هؤلاء الناس . .

لا يعرف الفرق بين الليل والنهار فقد تغير كل شئ، أضواء مبهرة وبيوت من حجارة بيضاء والناس كالديدان تتزاحم وتختلط مندفعه فى كل اتجاه . .

راح يتنقل بين مكان وآخر دون أن يتوقف ودون أن يعرف سبب هذا الذى يحدث، يستمع لأحاديث لم يكن ليصدقها لو أنها قيلت فى زمنه ولكنه خارج الزمان . .

فلقد استمع إلى بيان الثورة وعاصر أمجاد يا عرب أمجاد عندما كان جمال عبدالناصر فى القاهرة وكانت ثورة الجزائر

تتقدم كل يوم فى الأوراس ومناضلو اليمن فى عدن يقاتلون ضد المحتل الانجليزى . .

ولكن ماذا حدث؟

كيف يتغير الناس والزمان وتتقهقر الأشياء؟

أتراه يزن بميزان آخر وينظر من خـلال ثقب بعيد فى عين الشمس؟

يتـابع سيـره، فـهو لا يتـوقف إلا قليـلا كى ينفث ثلاث كلمات كلما وجد جمعا من الناس، يقف مباعدا بين رجليه مادأ عصاه اتجاه الجـمع متوكئا عليها من الأمـام بحيث يظهر وكأنه يقف على ثلاثة، ينظر تجـاههم بعـينين محـمّرتين صـغيـرتين متعـبتين ليقـول (راش ومرتش وسمسـار . .) ثم يتحرك متـوكئا على عصاه دون أن ينظر إلى القوم مرة ثانية أو يسمع حديثهم . . وهؤلاء بالطبع سيقولون أنه كام مغـفلا ثم صار مجنوناً فَقَدَ كل شئ، وهو يعرف أنـهم سيقـولون ذلك ويعرف أن يوم الحـساب قريب ولابد له أن ينبّه فلقد كان هناك أهل وأحباء . . ويقرأ ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ٣١) .

كـان هناك أناس متـحابون مـؤمنون يحسـون بما يحـدث وينفـعلون لمـا يجـرى فى فلـسطين وفى عـدن وفى الجـزائر، يسـمـعون الآذان، الله أكبـر فيـستجيـبون، أن الله أكبـر والعزة للإسلام.. كانت هناك حقول القمح وكانت هناك السنابل عالية تعانق شمس الضـحى، والجباه عالية والرؤوس مـرفوعة، ترى كيف انحنت السنابل وغابت الشمس وتلوثت الحياة؟ آه يا بلدى ماذا حـدث لك؟ ها أنا أرى هامات الزيتون قـد لامست الأرض من فـرط الانحناء فـكيف تنحنى الزيتـونة الـتى اقـسم الخـالق باسمها؟ كيف تنحنى لغير الله؟ ومن أجل ماذا؟ حفنة من المال! ابتسـامة فى الوجه؟ كرسى للجلوس ومـد الأيدى فى نهاية كل شهر؟!.

وكان الأطفـال يجذبون لباسـه المهلهل وهم يتـضاحكون ويصرخون، بهلول بهلول، وهو لا يأبه لأن من يقول الحق فى هذا الزمن، فى زمن انتـشر فـيـه العفن ورائحـة النفط لابد أن يكون بهلولا ..

لا يأبه به أحد أو يسـأله من الكبار، أن كان هناك كـبارا، فقـد كبرت الاجسـام وصغرت النفوس، لم يسـأله أحد من أين

جاءولماذا أو من يكون وهل ينتمى إلى هـذه الأرض؟ لم يفتح أحد معه هذا السؤال كـأنما هم يخجلون من سؤاله ولا يريدون نبش المـاضى الذى يعـيش فيـه هذا الرجل المتجـول لكى لا يفـضح حاضـرهم أو كأن البلد لم يعـد يخصـهم وقد هـجروه بعقولهم واحساساتهم، وكانوا قد شجعوا أطفالهم على مشاغبته وهو يمشى مـترنحـا يحادث الأموات ويتـغنى بزمن مضى فـيه خرافات اسمها طهارة وأخلاق وأحاديث عن وطن آمن، وسنابل تنمو وأنغام وترانيم، يستغرب كيف يهجر الإنسـان وطنه، نفسـه، أهله، التـراب الذى ولد فـيـه، قـيل أنـهم باعـوه بحـفنة من الدولارات، باعوه بعـشرة آلاف دولار مازالوا ينتظرونهـا بعد أن وقعوا صك البيع والعبودية والاغتراب!!

من يبيع الوطن؟ بل من يبيع أمه؟

ولأنه لم يكن هناك أحد يتـحدث مع الفقى مـصباح فيـما عدا مضـايقات أطفال هذه البلدة التى لا تشـغله كثيرا فـقد كان عليـه أن يناجى شجرة الـزيتون وقبـور الموتى والطريق الـترابى الضيق والمسـجد العتيق..

كان كلامه يسـتفزهم أحيانا فهو يقف فى ساحـة المسـجد

عندما يكون هناك جمع منهم ويشير إليهم بسبباته قائلا (راش ومرتش وسمسار) ثم يغمغم بكلام كثير متداخل وغير مفهوم قبل أن يواصل المشى وغالبا ما يدور حول نفسه فى ساحة ذلك المسجد الذى قضى عمره يؤدى فيه صلاة الفجر والصبح حاضرا بعد أن يؤذن للصلاة كل يوم فى الصباح الباكر عندما كانت الدنيا بخير وعندما كان الناس آدميين، وربما هو بذلك الكلام المتداخل يشير إلى تلك الفترة، ولأن الناس أعداء ما جهلوا كما يقال فقد ناصبوه العداء ولأنه لم يكن أمامهم من خيار إلا تسليط أطفالهم عليه لمضايقته ورميه أحيانا بالحجارة لأنه بهلول ومسكون بالعفاريت، ومن تسكنه العفاريت لا يعرف ولا يخضع لنواميس المجتمع، هكذا يقولون . . وهو لا يرى في حياة هؤلاء الناس إلاخواء فهم لا يتزاورون ولا يجلسون حول موقد الشاى ولا يعرفون سيرة أبو زيد الهلالى والخفاجى عامر، ولا تعمر قلوبهم بأمجاد يا عرب أمجاد، ولا يجلسون هانئين هادئين حتى أثناء تأدية فرائض الصلاة، حياتهم خواء وقلق وعجلة، وهو يعيش براءة تلك الأيام الخوالى وأولئك الناس الأطهار، أى أن تناقضا حادا يقوم بينه وبين هؤلاء القوم

ولأنهم يعتبرونه بهلولا، ولأن البهلول لا يفهم وأن فَهَمَ فإن أحدا لا يصدقه فقد كانوا لا يأبهون لوجوده ويتحدثون عن كل شئ دون تحوط أو خوف، وهذا التناقض الملعون تمثل في أنهم اعتبروه بهلولا وحتى نساءهم لا تتحفظ منه، أما هو فقد رأى أنهم أناس تخلى عنهم الله وحلت بهم اللعنة، لعنة المال الحرام والخوف والقلق والنفاق..

هو يرى نفسه فى عالم آخر لا علاقة لهؤلاء به، عالم الطهارة والصدق والإيمان، أما عالم هؤلاء فهو النفاق والخنوع والملق والبحث عن المنافع والمناصب والكسب الحرام، ويذكر أن الرسول عليه السلام قال (لا يدخل الجنة قتات) وهؤلاء الناس لبسوا أقنعة ملونة يتقرّبون بها من الحاكم، أى حاكم، مصفّقين راقصين فى حين أن ما بداخلهم مختلف تماما، وما يظهر من كلام يمذعونه فى جلساتهم الخاصة فى المرابيع.. ولقد سخّروا العلاقات العائلية والقبيلية لخدمة تلك الأغراض التى تعبر عنها الأقنعة، وفى حين أن الفقى مصباح يقول أن عقول هؤلاء الناس قد توقفت وضمائرهم ماتت، يقولون هم عنه أنه رجل فقد عقله وهو يعيش طقوس مجتمع أهل الكهف،

والواقع أنه يعيش تلك الذكريات التى تجرى متوهجة فى العروق وذلك الانتماء الدائم للأرض والعلاقة الإنسانية بما فيها من براءة وطهارة وصدق واخلاص وصفاء، ولم يبق له إلا تلك الانقاض التي تذكّره بالراحلين وأطلال بيت قديم كان مبنيا بالحجارة وهى شئ نادر فى ذلك الزمان..

ومع ميلاد كل شمس فى يوم جديد يبدأ مسيرة البحث عن الأصل، عن الحقيقة، عن الناس الذين لا يبدلّون جلودهم ولا عرفوا الأقنعة الملونة، يعود بذاكرته إلى ما مضى فيعود معه الزمان متباطئا وتظهر الصور متتابعة، القرية والشيخ على ومجلس الشاى واحتفالات (المزار) ومواسم الزرع والحصاد ومندوبو الاحزاب وقضية الاستقلال وحرب فلسطين، إذاعة صوت العرب والشرق الأدنى وإذاعة القاهرة، وعندما ينفرد بنفسه وهو غالبا وحيدا يتساءل، هل يعلم أولا الأمر أن الكذب والمداهنة والمنافق ما هى إلا أسلحة فاسدة رديئة لا تصمد طويلا؟ وأن هذه الفئة من الناس هى التى تطلق الأكاذيب والاشاعات وهى تخرب وتسرق وإذا ما حاق بالوطن سوءا نفذوا بجلودهم كفئان سفينة غارقة..

ويعود متهالكا بعـد كل جولة لا يعرف لها بداية ولا نهاية فيـرتمى على ذلك الفراش المحـشو بالقش متـأملا ومتـألما، متأملا ما كان ومتألما لما يجرى، وترن في أذنه كلمات (بهلول) كعواء قط جائع فيـنهض متجها إلى الجامع عبرالمـقبرة القديمة سالكـا ذلك الطريق الملتوى المـترب الذى لم يعـد ينبت على جانبيه العشب، وفجأة يستسلم لرغبة جامحة، فلقد كان يتحدث لأى جمع يجـده خارج المـسجد أو على جنـبات الطرق أو فى السوق، وهذه المـرة رغب أن يتحـدث ويخطب الناس فى بيت الله ، فى الجامع . .

كانت الكلمـات كاطلاقات المدفع الرشـاش كأنما أراد أن يفـرغ ما بذهنه نهـائيـا وأن يقذف بكـل ما لديه من كـلام علّه يوقض الضمائر أن وجدت بقية منهـا، وبعدها فليذهب الجميع إلى الجحيم، ربما لأن هذا المدّخر من الكلام كان سببا ضاغطا على ذهنه واعصابه وكان لابد أن ينفثه.

تحـدث عن هذه القرية وعـن الصفـاء والمودة والصـدق وكيف أن الناس لم يكونوا كالحربـاء يتلّونون حـسب كل مناسبة وكيف أن الـشيخ عَلِى كـان ميالا إلى الانـجليز وكـسب المال

ولكنه أشرف منهم جميعا لأنه لم يكن مرتشيا ولا سمسارا، وبسبب هذا الحديث هاجوا وماجوا إذ رأوا أن البهلول قد تجاوز الحدود وتخطى الخطوط الحمراء ولم يعد ممكنا احتماله حيث أنه يسمى الأشياء باسمائها، كان دائما يردد الآية الكريمة ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء: ٦) وهم يقولون عن الرشوة أنها تبادل مصالح وعن السمسرة أنها شطارة وعن الواسطة أنها خدمة، وكانوا قد رموه بكل النعوت أما الآن فلابد من اسكاته نهائيا.

وفى مجتمع تبادل المصالح والشطارة والخدمة لا مكان لبهلول يعيش طقوس مجتمع بال، ولهذا لابد أن ينقل البهلول الذى يعرف باسم الفقى مصباح إلى مصحة الأمراض العقلية،وبقلب مكسور وعين دامعة ولباس مهلهل سيق الشيخ الذى يسمى الفقى مصباح أو البهلول إلى مبنى قديم يسمى مستشفى الأمراض العقلية ، كان يسير متعثرا والأطفال يلاحقونه بالصراخ، بهلول، بهلول، ولا ذنب له أو جرم ارتكبه غير أنه يرى الأشياء كما هى ويسميها باسمائها، يرى مجتمع يعيش فى ضلال، يرى أناس عشقوا المادة وفقدوا الضمائر والأخلاق

فتخلى عنهم الله، يرى أناس باعوا أرضهم بوعود وهو أحب كل حبة رمل من تراب الوطن، ولأن الوضع كان غامضا ومثيرا وهو منفرا فى نفس الوقت فقد رفع الفقى عقيرته بصرخة استغاثة، قائلا، آه يا بلدى إلى أين يدفعك هؤلاء الحفنة من سفلة القوم حراس الأوتان الذين يأكلون باسمها ثم يأكلونها هى نفسها؟!

وقد ادخلوه مشدودا بقفطان أبيض كتّف يديه وهو الشيخ الذى لا يقوى على المقاومة ولا حتى الوقوف طويلا ، ولم يجد شافيا بعد ذاك غير كتاب الله فقرأ ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

وعندما ادخلوه أحس بأن العالم قد أطبق عليه وأن غمامة سوداء قد لفت الكون كله، وأن الثورة والنضال والوحدة تحولت إلى أحلام مؤرّقة، وأن كل التضحيات قد انمحت وأن كل الصالحين قد صلبوا معلقين من أرجلهم ولابد أن الباطل قد انتصر على الحق. . ولقد كانت رحلة العمر عامرة مباركة رغم

أنها انتهت في مستشفى المجانين ولابد أن الله قد حباه بقدرة فائقة على الصبر والاحتمال والفهم وقلّة الجزع، وهو يعرف أن هذا المجتمع الجديد الشرس ذى الأنياب الزرقاء واظافر السباع مع خبث الثعالب لن يرحمه.. كان اليوم صحراويا قائضا ذلك الذي نقل فيه الفقى مصباح إلى مستشفى الأمراض العقلية وهو ليس مريضا وأنما مؤمنا صادقا وطنيا ولم يكن ذلك إلا تعبيرا من الطبيعة ضد العسف والظلم ومجتمع الفساد، كان عليه أن يكابد مشاق هذا الوضع الجديد بين جدران وقذرة أناس فقدوا كل شئ، فقدوا ذلك الشئ العظيم الذى يمنحه الله للإنسان ويميزه به، تلك النعمة التى أنعم بها البارى على بنى آدم، نعمة العقل، وكان عليه أن يطوى ذكرياته فى أعماقه، تلك الذكريات الطيبة التي لا يمكن أن تتحول إلى رماد تذروه الرياح، رياح الجهل والغباء واللهات وراء الماديات، وإذا كان قد اجبر على أن يتخلى عن عالم هؤلاء الذين يدورون وراء الكسب الحرام كما يدور ثور الساقية فإنه لم يفقد شيئا حتى وأن عاش بين عدد من المجانين وعُدّ منهم..

لابد له أن يسلم نفسه للخالق، أن يتجه بكليته إلى خالق الكون ينشد صفاء النفس بقلب مؤمن وروح طاهرة، وهكذا انطوى على نفسه كاظما براكين النيران فى صدره مدركا أنه يستطيع المحافظة على توازنه النفسى والعقلى والجسمانى رغم ثقل السنوات الثمانين من العمر، ورغم ضجيج المكان الذى يضم مخلوقات فقدت العقل والأمل، أنه يتوجه إلى خالق الكون فى صلاة وتسبيح دائمين، ورغم الانطواء بين هؤلاء المجانين فقد ظهرت له أسرار غريبة من تصرفاتهم حرى به أن يمعن النظر والتفكير فيها، فقد وجد أن هؤلاء يتشبهون بكل شئ ويتقمصّون شخصيات القادة والزعماء والفنانين والخطباء والفلاسفة ورجال الدين ولكنه لم ير واحدا منهم تقمّص شخصية ثرى أو صاحب شركة أو تاجر أو سمسار، فهذا أحدهم يتقمّص شخصية الجنرال رومل القائد الألمانى ويتحدث عن ألمانيا وحرب الصحراء وآخر يتشبه بنابليون ويضع فوق رأسه قبعة من ورق شبيهة بالقارب المقلوب، وآخر يضع أمامه لوحة مرتكزة على ثلاثة أرجل ويخطط بفرشاته فوقها كأنه ليوناردو دافنشى ورابع يحمل حزمة من الأوراق والكتب القديمة

ويضع نظارة طبية فوق انفه وشعره طويل ومنكوش يتحدث ببطء جاعلا الكلمات مسجوعة ذات قوافى كأنه امرئ القيس، وآخرون يضعون شراشف ملفوفة على رؤوسهم يتقدمهم واحد بلحيته البيضاء وقد صنعت من نبات الحلفاء الذى انتزع من مقشة قديمة ومسبحة تتدلى بين اصابع اليد اليمنى لا أحد يعرف من أين جاءت، بين كل هذا المهرجان الدائم الصاخب الذى يبدأ يوميا من الصباح الباكر لم يكن هناك واحدا قد تقمّص شخصية تاجر أو ثرى ولقد تراى له أن عالم هؤلاء أعقل وأصدق من عالم أولئك الذين يلهثون وراء المال بكل الطرق ويظهر أن الجنون لا يؤدى بصاحبه إلى مستوى سقوط طلبة الجاه والمال فى عالم النفط الذين يقدمون ماء وجوههم وحتى وسائل أخرى قربانا على مذبح النفع، وصار يمعن النظر فى كل شئ فقد كانت فترة التأمل هذه غنية كأنه نفذ ببصره وبصيرته إلى أغلب أسرار الكون بمخلوقاته ومعجزاته التى وضع فيها الخالق قدرته وحكمته، يقرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام:٩٥).

كان مبنى المستشفى قديما وأسفل حيطانه تعرّت بسبب الرطوبة وفى كل حجرة ينام عدد من الناس، ويلتقى الجميع فى الباحة الأمامية كل صباح، هناك عيادة صغيرة بها طبيب باكستانى وممرض بلغ من العمر أشده وقد عاصر هذا المستشفى منذ البداية، تتوسط الباحة الأمامية نافورة قديمة لا تصل إليها المياه، والمبنى محاط باشجار البلوط وفى زاوية من سور المبنى شجرة زيتون مَعَمِّرة يسميها العاملون بالمستشفى. (الفرعونية) يلّف المبنى الظلام مبكرا حيث تطفأ الأنوار وتقفل الأبواب الحديدية التى تشبه أبواب السجون الخاصة بالمجرمين الخطرين.

حاول الفقى مصباح تعويد هؤاء المرضى على أداء فروض الصلاة فى أوقاتها لكنه لم يقو على تنظيمهم ولذلك جعل يؤدى الصلاة بمفرده وخصوصا صلاة الفجر والصبح واعتاد أن يجلس متأملا قرب تلك الزيتونة الهرمة.

العلاقة بين العاملين والنزلاء كعلاقة الفأر والقط، فالأولين ينظرون إلى النزلاء كما لو كانوا مساجين وهؤلاء يرون فى العاملين أداة تسلط وقهر، لم يكن هناك علاج بالمعنى المفهوم

وكانت المعدات قديمة وأغلبها عاطل بسبب انقطاع الكهرباء وعدم توفر قطع الغيار والاهمال، عندما يلتقى هؤلاء النزلاء وبعد أن يفرغ كل منهم من تأدية دوره فيلسوفا كان أو قائدا أو زعيما، يجتمعون وكانت هوايتهم أن يتوزعوا المناصب، يشكلون وزارة فيسمّون هذا وزيرا وذاك قائدا والآخرين موظفين وخفراء، فى اليوم التالى يعيدون خلط الأوراق ويثيرون حول ذلك ضجة وجلبة وصخب كأنهم فعلا يقيمون دولة وأن لم يكن الفقى مصباح يشارك فى ذلك كان يتأمل ذلك العمل ويفكر فيه لأنه يرى أن هؤلاء المجانين يعبّرون عن حقيقة ما يجرى دون مواراة، والمستشفى كحالة كل المرافق الأخرى تملأه القمامة ويرتع فيه الذباب وتغطى اجهزته ومعداته الأتربة لأنه لا يوجدمن يقوم بأعمال النظافة ذلك أنهم يقولون أنه ليس هناك فى سلطة الشعب أحد يخدم أحدا آخر مثلما أنه لا توجد دولة ولا رئيس دولة وبالتالى انعدمت المسؤولية وضاعت هيبة القانون حتى صار رجل الأمن يخاف اللص واستاذ الجامعة أو المدرسة يخشى الطالب الذى يمكن أن يقوم بالاتفاق مع آخرين من الطلبة بطرد ذلك الأستاذ مهما كانت كفاءته ومؤهلاته كما

أن أى مستخدم فى هذا المستشفى يمكن أن ينهى خدمات الطبيب، ومن هنا فإن الأشياء كلها بالمقلوب ولا يوجد ثواب أو عقاب وصارت كلمة الشعب تمضغ فى كل فم بمناسبة وبدون مناسبة وهذا شئ مخالف تماما لنصوص النظرية وما تستهدفه من حرية وسلطة للشعب . .

صار الفقى مصباح يسرد قصته على اسماع كل واحد من الذين يعملون فى ذلك المستشفى بدءا بالطبيب فالمدير وانتهاء بالخفير الطاعن فى السن، تحدث عن القرية وأولئك الناس الأبرار وكيف كانت معيشتهم، يحرثون ويحصدون ويقيمون المزارات فى مواعيدها ومواسمها ويسمون الأشياء باسمائها ويسمعون قصص الهلالية، وكيف أنه كان يملك أول راديو فى تلك القرية وأنه كان يسمع أخبار القاهرة وإذاعة الشرق الأدنى وكيف تابع أخبار حرب فلسطين التي كان من المتوقع أن ينتصر فيها المسلمون لولا تآمر بريطانيا وخبث ساستها، وعن الشيخ علِى وما كان يفعل وأخبار ذلك الراديو الصغير الحجم الذى جاء به ليسمع أخبار لندن فقط، وكيف كان الناس أحرارا شرفاء يحملون سلاحهم دون خوف من أحد وإذا ماتوا فإنما من أجل

الإسلام والشـرف والوطن، ثم كيف اختلف الأمر وصـار حمل البندقية جريمة فى عهدى إيطاليا والإدارة البريطانية . .

تحـدث عن ظهور الاحـزاب ونشاطات مندوبيـها وكـيف جاءت لجنة الأمم الـمتحـدة لتبـين موقف الليبـين من مطلب الاستقلال، يتوقف قليلا فى كل مرة ليلتقط أنفاسه وهو يداعب حبـات مسبـحته بينـما يتبـادل النظرات المتسـائلة أولئك الذين يتجمّعون حوله، ثم يواصل الحديث الذى لا يَمِلّ ترديده، جاء الاسـتقلال وتكونت الدولة الليـبية وانتـشرت القواعـد والقوات الاجنبية وشـركات النفط الغربية فى كل مكان وظـهر النفط وقد دخلت البلاد مرحلة جديدة حيـث أن المال يحدث التفاوت بين الناس وينبت الـخـلاف والاحـقاد ويـجـعل لأقل الناس شـأنا وهيلمانا ومن سـفلة الناس اعلاهم ذلك لأن المال فى الحقـيقة يغّطى العورات، وأن إلى حين . .

يتحدث عن صوت العرب وتأثير جمال عبدالناصر وخطبه ثم تأثيـر ثورة الجـزائر بين صـفوف الشـعب الذى كـان يطلب التغيير ويطالب فى كل مناسبة باخراج الانجليز والأمريكان، ثم كيـف أنه سمع البـيان الأول للثـورة وكيف أنهـا جاءت بيـضاء

فايدها الشـعب بالاجماع وتـفاءل بها واسـتبشـر، ولقد قطعت اشواطا كبيرة فى سنواتها الأولى إذ اخرجت الانجليز والأمريكان والطليان وسـيطرت على الثروة الوطنية وبذلك حـققت مطالب الشـعب الأساسـية وإذا كـانت هناك أخطاء فـهى أخطاء الذين يعملون، ومن يعمل لابد أن يخطئ واخطاءه دائـما أو غالبا عن حسن نيـة ولكن الانتهـازيون والمتـملقون انحـرفوا بهـا وتقدم الصفـوف عديمـو الذمة والأصل فـانتشـرت الفوضى والفـساد والرشوة فى بلد لم يكن فيه أحد يعرف الرشوة أو السـمسرة، هنا يقاطعـه أحدهم وكـان شابا غـرا، قائلا.. خذوا الحـكمة من رؤوس المجـانين، الفقى مـصباح أصـبح مصلحا اجـتماعـيا، يضحك بصوت عـال، ينظر إليه الفقى مصـباح شزرا ويرد، أنا لست مجنونا وأن لم أكن مصلحـا اجتماعيا فـإننى لست مخربا اجـتمـاعـيا، عند هذا الحـد وكلمـا احتـّد الكلام يبـداؤن فى الانصراف واحـدا تلو الآخر، منهم من يقـول، الله غالب وهو يخبط يدا بيـد ومنهم من ينصرف ولابد أنه مـن داخله يقول أن الفقى مـصبـاح على حق ولكنه مع ذلك مجنونا، مـجنون لأنه يتـحدث بذلك الشـكل فى حين أن التـهم جـاهزة، مثل مـرتد

ومتخـاذل وضد سلطة الشعب وعميل ومـرتزق الخ، أما الفقى فهـو لا يهتم كثيـرا لأنه مقتنع بالمـثل القائل (ماذا يضيـر الشاة سلخها بعد ذبحهـا . .) وقد استشاط عضبا أمين الـلجنة الشعبية عندما سمع مـا يقوله الفقى مصبـاح ولكن ماذا يمكن أن يعمل لمجنون نزيل مستشفى أمراض عقلية غير التجاهل؟؟ وهو يقول مجنون من يصدق المـجنون، والفقى مصبـاح يردد قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (الاعراف:٨٧) ويضيف ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٩٦) وكان أمين اللجنة الشعبـية قبل أن يكون أمينا أحد البلطجيـة تجار الخمور التى تصنع مـحليا وتسمـى (قرّابا) ولم يقلع عن هذه التـجارة، كما كـان يسميهـا، بل أصبح يحميـها بوظيفته الجـديدة وكلما واجـه مـشاكل أو اخطـارا بالغ فى الهـتاف والـتصـفـيق ورفع الشعارات . .

وبينما كان الفقى مصـباح يريد كل الناس أن يكونوا شرفاء اطهارا انقياء مؤمنين يحـبون بلادهم لأنه يحمل بين ضلوعه قلبا ينبض بحب الوطن والناس وفى داخله نفس شـريفة طاهرة ومع

ما وقع عليه من ظلم بلا سبب أو جريمة وما لف حياته من ظلام كان يقول أن الظلم لن يدوم وأن نور الشمس لابد أن يشمل الكون كله، وهو يعرف أنه ليس مجنونا ولكنهم قرروا ذلك، وعندما جئ به إلى المستشفى قرر أيضا الطبيب أنه كذلك حتى قبل أن يختبره بل أضاف قائلا أنه خطر على الناس !! من يهاجم الفساد والرشوة والاستغلال، من يحب الوطن ويؤمن بأمة العرب يكون خطرا على الناس ويعّد مجنونا!!؟ وإذ كانوا قد ادخلوه المستشفى الخاص بالمجانين فلابد أنهم رأوا أن كلامه بعد ذاك سوف لن يكون له معنى لأنه مجنون يتحدث إلى مجانين، وحتى المستخدمين الذين تحدث إليهم منعوا من الاتصال به ولم يبق غير ذلك الغفير الطاعن فى السن ضعيف الذاكرة ثقيل السمع الذى صار يزوره بين وقت وآخر ولكن هل تسند النواية الزير كما يقولون؟؟) وكان الفقى مصباح قد عرف أن هناك أناس آخرون فى إقباء ودهاليز تحت المبنى لكنه ما كان يعبأ بذلك كثيرا لأن الحديث مع مجنون واحد لا يختلف مفهومه إذا كان مع مائة من المجانين، وهو لابد أن يقرأ ويتحدث ويصلى ويناقش أن أمكن، هو ليس مجنونا رغم

الصخب ورغم أنه لا يعيش عالم هؤلاء الناس الذين فى المستشفى ولا أولئك الأكثر جنونا الذين رآهم خارج هذا المكان، وكما لم يتزعزع إيمانه من قبل فإنه لن يتزعزع الآن، وفى ذهنه أن الذى غير الوضع فى بلاده وأخرج الانجليز والامريكان لن تذهب بعقله السلطة أو التصفيق والرقص ولذلك فقد كان ربما بلا شعور يردد (أن صاحب الشأن سيتصرف) فلا يمكن أن يذهب كل شئ ادراج الرياح هكذا، والقلب المؤمن لا يخالجه الشك أو الخوف وهو يذكر المثل القائل (رحم الله بطنا انجبت عاقلا وسفيه) وإذا كان السفيه قد ساد لفترة فإن العاقل لا يمكن أن يترك الأمور تجمح ويضيع كل شئ، وصار الفقى مصباح يحدث نفسه كأنما هو يهذى، يجلس فى الصباح تحت شجرة الزيتون فى الساحة الخارجية وحيدا ويجمع عددا من الحجارة يرتبها على الأرض فى شكل صفوف كما لو كانت جنودا فى طوابير ثم يضمها إلى بعضها بحيث تصير كوما واحدا ويتلفظ بكلمات ثلاث (صاحب الشأن سيتصرف) ويردد هذه الكلمات وهو يعيد ترتيب حجارته، وهو لا يتناول إلا القليل من الطعام وقد تركوه يقضى أغلب وقته على ذلك الحال، ولم

يكن يدرى أن نزلاء ذلك المستشفى لم يكونوا جميعا مجانين وإنما جئ بهم لأسباب مشابهة لتلك التى جاءت به لكنهم لا يتكلمون وهم يساقون كل يوم فى الخروج إلى الساحة والدخول منها مطأطئ الرؤوس يتبعهم ويتقدمهم أناس غلاظ يحملون عصى فى أيديهم وعلى وجوههم علامات القسوة لا يتبادلون الكلام مع أحد كأنهم من عالمٍ آخر وربما هم كذلك لغرابة أشكالهم وتصرفاتهم، ولكن الفقى مصباح لا يهتم بذلك وحتى إذا ما سئل فهو لا يقول إلا تلكم الكلمات الثلاث، وعندما ينصرف فى خطوات متثاقلة بطيئة وهو يقبض بأصابع يده اليمنى على طرف لحيته الأيمن يقول، لم يحن الوقت بعد ، ومع مرور الأيام يدأ يكوّم أشياء سماها أسلحة وعلب قال أنها عربات وقد توسعت الدائرة، هنا حجارة صغيرة وضعت فى صفوف وهناك أكوام وعيدان منصوبة وعلب مرتبة، وعندما يجمع الحجارة الصغيرة يقول، أن صاحب الشأن قد أمسك اللجام، لكنه سرعان ما يشبك يديه فى بعضهما ويتكور متألما صارخا، ها قد فلت منه هذه المرة أيضا، ولأن لجنة المستشفى عدّته بهلولا بالفعل فقد تركته ولم تعد تمنع الاتصال به أو الجلوس

بالقرب منه، وصار أولئك السجناء المجانين يتحلّقون حوله ولأنهم ليسوا مجانين فى الحقيقة فقد اعتقدوا أنه يتنبأ بأشياء، فيسألون، ما هذه الحجارة المصفوفة؟

فيجيب، قال لهم صاحب الشأن أن يتحركوا فى كل الاتجاهات ليشقوا الطرق بحيث تمر منها الأشياء الجديدة، الأفكار الجديدة.

ويتساءلون ، أى أفكار ؟

فلا يرد بل يضم الحجارة ويقول، لقد اخطأوا ما هكذا يريد، فيسألون ، من هو؟

فيقول ، صاحب الشأن، ويبدأ فى تحريك علبة وضع بها بعض الحجارة الصغيرة ويشاور بيديه صارخا، أنها تتحرك بسرعة هائلة، هؤلاء قد يسقطون ،قد تنحرف عن الطريق، يقف ويدور حول نفسه وهو يردد، سوف تنحرف، قد تهوى إلى الوادى العميق، صاحب الشأن يركب العربة، يا إلهى أنها تنحرف، قد تسقط، يظهر على حافتى فمه زبد أبيض ويسّود وجهه ويصمت. .

يتبادل أولئك النفر الذين يجلسون على الأرض النظرات، ويسألونه، ولكنه لا يرد، يقف منهكا كأنما يراقب شيئا ما، كأن

كارثة ستقع، ولكن اساريره تنبسط فجأة ويبتسم ليقول ها قد اوقفها، يجلس ليضع الحجارة الصغيرة فى صفوف كما كانت وهو يردد، صاحب الشأن سيتصرف، ويسألونه، من هو صاحب الشأن؟

ينظر إلى بعيد بعيد ويقول، هو الأول، هو دائما صاحب الشأن أنه هنا على هذه الأرض الطيبة، ينظر يمنى ويسرى دون أن يركّز نظره على مكان واحد، أنه هنا، هنا منذ زمن، زمن بلغ فيه الطفل أشده، هو الذي يدفع العربة بقوة وهو الذى يجعلها تهتز لكنه لا يتركها تقع، هؤلاء سيسقطون، يزم شفتيه ويضم الحجارة المصفوفة، أنهم لا يفهمونه ويتحفز كأنما يريد القفز وهو يقول امسكوا الحصان لقد جمح، لقد جمح، لقد جمح، اين صاحب الشأن؟ ها هو ذا، ويهدأ حيث يدخل فى غمغمة لا تفهم، صاحب الشأن يمسك بكل شئ وأن كان قد ترك الأمور لبعض الوقت ولبعض الناس لأنه يجرّب وهو ينظر إلى أولئك الذين يقفون على جوانب الطريق وأن كانت القافلة قد اجتازتهم إلا أنه لم ينسهم، لابد أن يحفظ لهم دورا أو ادوارا وهو يحتاج إليهم فى وقت آت عندما يقرر أن الاندفاعة

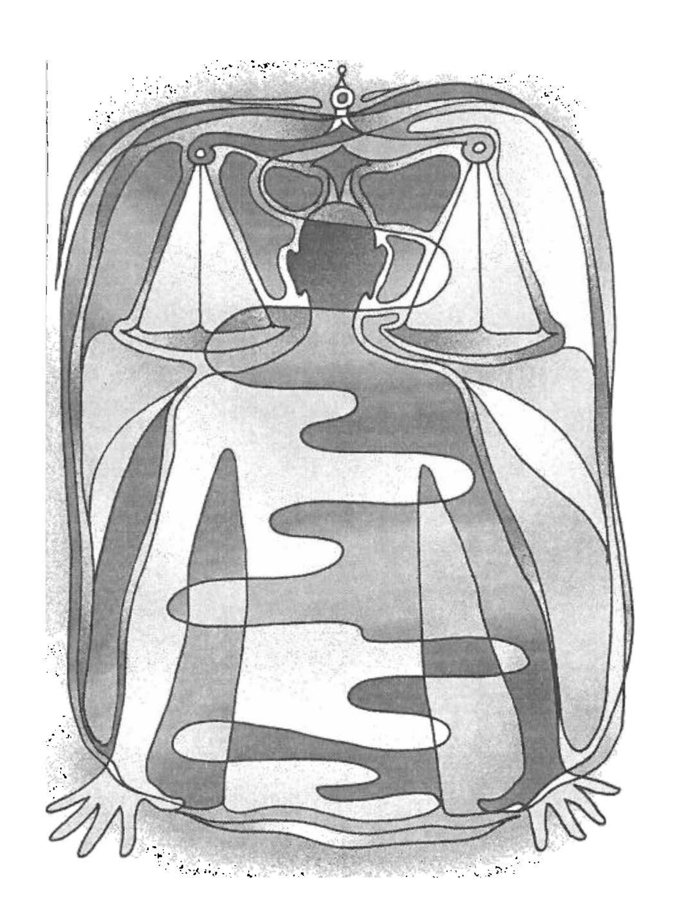
قــد وصلت إلــى حــيث يجب أن تقف، وينصـــرف الناس من حــوله، ينصرف أولــئك النفر من الــناس كل له رأى ولكنهم لا يتكلمون، ربما عملا بالحكمــة القائلة (إذا كان الكلام من فضة فــالسكوت من ذهب. .) ولابد أن تــكون هذه بديلا عن القــول (الســاكت عن الحق شيطان أخرس. .)

ويكون بذلك الفقــى مصباح قــد أعطى ظهره تمــاما لكل هؤلاء الناس فى هذا المجتمع وقد اتجــه بكليته إلى الله سبحانه وتعــالى يقرأ القــرآن ويؤدى الصلاة فى أوقــاتها ويقــضى أغلب الليل يتمتم بتــسابيح وكلام لا يفهمه أحــد، وهو لا يهتم بأحد على الرغم من أنه عرف أن سكان الجزء السفلى من المستشفى ليــسوا فــعلا مجانين ولا هم مرضى مع أنهم لا يــتكلمون عندما يتحــلّقون حوله وهــو يزاول نشاطه اليــومى فى جمع الحــجارة وتوزيعهــا والتحدث إليهــا كأنما هى فهــلا أناس، ولا يفهم من تمتــماته إلا شئ واحد لم يتــغير ولم يختــلف وهو (أن صاحب الشأن سيتــصرف. .) لم يفقد حماســه لصاحب الشأن ذاك ومع هذا فهو إذا سألوه لا يرد بشكل مباشر لكنه كان يقول، لا يحك ظهرك إلا أظفرك، ومن يده فى المــاء ليس كمن يده فى النار،

والكاشيك لا يأتى بنبأ الحامى، والعائلة لا يحميها إلا عائلها، ثم يكرر ، صاحب الشأن سيتصرف ، سيعيد الذين خرجوا عن الطريق إلى جادتها بلا دماء ولا جراح أو عنف. .

ولأول مرة يخرج الفقى مصباح ليلا ليرى السماء المزروعة بالنجوم اللامعة وقد ادهشه ذلك المنظر الرائع وتفاءل خيرا وأن لم يطل به الانتظار فقد عاد إلى مكانه وهو يمشى على رؤوس اصابع قدميه كأنه يخاف أن يفطن إليه أحد، والحقيقة أنه يقيم فى ركن لا أحد فيه ولكنها عادة الحِرّس والخوف من الازعاج لأنه يعيش فى حالة دائمة من التأمل. . وفى الصباح الباكر كالعادة اتجه إلى حيث شجرة الزيتون الهرمة فرأى وردة قد تفتحت لتوها بينما كانت قطرات المطر تتوالى محدثة فحيح خفيف بين أغصان شجرة الزيتون وقد لامس وجهه نسيم الصباح البارد، كان نشطا منشرح البال، شرع فى جمع حجارته المختلفة الاحجام والاشكال وهو يرتبها فى أوضاع مختلفة هذه مرتفعة وتلك منخفضة، بعضها على وجه الأرض والأخريات فى حفر صغيرة تكاد تختفى وهو يقفز بأصابعه بين هذه وتلك لكى يرفع واحدة ويضع الأخرى فوق ثالثة بعيدة أو قريبة منها

ويضرب الصغيرة بالكبيرة أحيانا محدثا صوتا عاليا بينما قوى مختلفة أيضهو ينهض ويجلس فى حركة دائمة كأنما هناك حركة دائرة فى مواضع مختلفة وبين قوى مختلفة أيضا ريعة متتالية كمن يصدر تعليمات أو يردد أصواتا تطرق أذنيه ثم يتوقف قليلا ليعود إلى خلط الحجارة وتوزيعها من جديد في أوضاع جديدة ومن يرى إى تلك الحجارة يجد أنها مختلفة الألوان يميل بعضها إلى السواد، والفقى عندما يجمعها إلى بعضها يظهر على وجهه الانشراح ولكنه سرعان ما يعود ليبعثرها بامتعاض وقلق شديدين مع انزعاج وتوتر بالغين . .



(٣)

المـــال والمبـــادئ، العـدل والـظلم، الاشـتــراكيــة والرأسمالية، النور والظلام، السـالب والموجب، الموت والحياة والليل، الثورة والاسـتغلال.. شـيئان لا يلـتقيـان أبدا كخطين متوازين مختلفـين إلا إذا كان هنالك خطأ أو خلل في أحدهما، أي أن يكون واحدهمـا غير حـقيقي وغـير أصيل كـمن يحمل شعارا مقلوبا وكمن يغلّف وجـهه بقناع.. وكان الشيخ عَلِي قد وجد طريقه إلي الصفوف الأولي وهو دائماً يصطنع الابتسامة في الوقت المناسب ويضع القناع المطلوب علي وجهه ويبدّل جلده بـرعـة فائقة، ولقـد وجد في القبـيلة حمايـة وقناة موصلة إلي أصحاب النفوذ الجدد، وكما كان في العهد السابق يوزع الكروت الشـخـصيـة من أجل التـوسط في الوظائف والمنح الـدراسيـة والإسكان وحتي سـجل المجـاهدين إذ كان للجهـاد ثمنا يدفع شهريا، فلقـد أصبح الآن يرتّب الجلسات ويتفق مع الجـميلات لاضفاء الجو المناسب والمطلوب في مـختلف الأماكن، مزارع وشقق وفيـلاّت، وهو يعرف تماما أنه قـد كسب الجولة الأولي وسيكّرس وقته وجهده وماله ووسـائله الكثيرة لما بعدها، ويذكر

أنه قال لأولئك الضباط الشبان الذين التقاهم في القرية إنهم أتوا بوزارة لا أحد فيها من ذوي الخبرة السياسية أو الدبلوماسية والحنكة وهو في الحقيقة يقصدهم.

وهؤلاء الثوار أو الحكام الجدد تدفعهم مثاليتهم إلي أن يصدّقوا أن كل ما يفكرون فيه يمكن تحقيقه بجرة قلم، وهكذا رفعوا شعارات لا تتوفر لهم عدة أو قدرة الالتزام بها ومن خلالها تكونت بطانة المزمّرين والمنافقين والمصفّقين، ذلك أن الشعارات تحتاج إلي كثير من الطنين وقليل جدا من العمل، ولأنهم عطشي إلي الجاه والتعظيم فإن الكلام وصوت الطبول يكفي لارواء عطشهم ومن هنا فإن كل شيء يمكن أن يعمل باسمهم، الاستغلال والرشوة والرقة وغير ذلك، كل شيء ممكن في ظل الشعارات الكبيرة والخبرة القليلة، ومن الشعارات تتولد أساليب، والأساليب تبتكر لها أفكار ووسائل، وتكون أحيانا النوايا طيبة ولكن الانحدار السريع يأخذ كل شيء أمامه..

ومع ظهور الأفكار الجديدة صار الاعتقاد بأن كل ما يخالفها خطأ ومعيق وكل من يحاول حتي مجرد نقدها رغبة في التوضيح أصبح معوّقا ومارقا، وهكذا ظهر حملة المعاول لهدم

كل شئ قديم، ومن الاشـياء القديمـة، القانون والنظام والدولة بل وحتي الأسماء والتواريخ، وكـما يقال يبدأ الباطل بالسكوت علي أول كلمة ظلم..

وعندما يفقد القانون والنظام تصبح المناصب والمنافع نهبا ويحدث التزاحم والحقد والرغـبة في الانتقام والدسائس ويكون الفائز في هذا السباق صاحب أعلي صوت وأكبر قدر من الكذب وبذلك تتقوض المباديء والمثل والأخلاق، وهذه برع فيها الشيخ علي، فقـد كان يقيم في قرية صـغيرة وعـاصر الحكم الإيطالي والإنجليزي وفـترة ظهـور الأحزاب الوطنية ومـجئ لجنة الأمم المتحدة إلي ليـبيا قبيل الاستقلال، ثم فتـرة الاستقلال والحكم الوطني ولم يترك شاردة ولا واردة إلا استغلهـا لخدمة مصالحه وأهدافه، وها هو يبدأ المسيـرة الجديدة مع الحكم الجديد وقد أكد انتماءه للحكم الجديد هـذا من خلال القبيلة وأحس بالأمان والحماية وفلسفته الآن أن يضرب واحد بالآخر، وإذا كان المثل يقول (إن من حفرة لأخيه وقع فيها) فإنه يخالف ذلك تماما لأنه لم يحدث ذلك معه أبدا رغم تقلب الأوضاع واختلاف الناس..

فـإذا كان هؤلاء قـد نادوا بحكم الشـعب فـإنه يلعن كل النظم الأخري، وإذا أقروا الشـريعة الإسلاميـة فهو يصب جام غـضبه

علي كل الشرائع الأخـري، وفي اللجان الشـعبيـة هو الأسبق، وفي المؤتمرات هو الأبرز في التأييد والاشادة. .

في هذا العالم الجديد والحكم الجديد صارت للشيخ عَلِي شبـكة كبيـرة متـداخلة من الأعوان والوسـطاء والشركـاء أجاد استخدامـها باتقان شديد، وإذا كان الشيخ عَلِـي قد أصبح قادرا علي قـضاء كل مطلب لأنـه له في كل مكان عون أو شـريك، أمين مؤتمر أو رئيس لجنة شعبية أو مدير بنك أو شركة أو سوق عام، فانت لا تـستطيع في العـالم الجديد هذا الحصول علي أقل الأشياء مثل علب حليب الكـرنيشن إلا إذا كنت تعرف أحدا في السـوق أو الجـمعـية أو التشـاركيـة وما أكثـر الأسمـاء، كذلك الحصول علي كيلو لحم أو دقيـق أو جهاز تليفزيون علي الرغم من انك تدفع الثمن مقدما إن وجـدت شيئا من مطالبك، ويبقي تليفونك صامتا ابكما مـا لم تجد وسيلة لجعله ينطق مثل الشيخ عَلِي أو أن تدفع رشـوة لعـامل التلـيفـون، والرشـوة مـحـددة ومعروفة، مـبلغ معروف لتوصيل الحرارة وآخـر محدد لاصلاح الكابل، وينطبق هذا علي الأمـور الأخري مثل جوازات السـفر وشهادات المـيلاد والوفاة وكتـيب العائلة والاعفاء مـن الخدمة العسكرية والحـصول علي رخصة، أي رخصـة، كل شيء بثمن

ومن خلال أناس مثل الشيخ عَلِي وكلها تسمي تبادل مصالح وخدمات، ولكل إنسان ثمن، وإذا كان الشيخ علي في السابق كان يبعث الكروت من أجل التوسط فقد صار يقدم أظرف محشوة بمبالغ كبيرة وحسب الخدمة المطلوبة والشخص المقصود مثلما يرتب جلسات الكيف ويقدم أحسن أنواع الخمور ويضحك علي أولئك الذين يشربون الخمر المغشوش والمصنوع محليا، ولقد انتشر الخمر المحلي عندما منعت المشروبات الكحولية، حتي أن زبائن الشيخ علي يتنّدرون عليه بالقول أن ويسكي الشيخ علي لاينضب، وهو يسعد بذلك الاطراء..

ويظهر أن الثورات عندما تحدث تفتح أبواب الفساد بالاكثار من الممنوعات وتعدد القوانين وجهات الاختصاص وتداخل الصلاحيات ناهيك عن إبْطَالَ كل القوانين التي كانت سارية ومطبقة قبلها..

ومن أجل العالم الجديد لابد للمرء أن يلغي نهائيا ما كان له من العالم القديم، والشيخ علي يقول لكل جديد شرهة، وجديده دائما المصالح والعلاقات، ولقد كان من سدنة النظام القديم وقبل ذلك كان من أعوان الإنجليز وصار الآن من أشد الشامتين في ذلك النظام، وإذا كان قد ألغي من ذاكرته الفقي

مـصبـاح فإن هناك كـثيـرين يعـرفونه وهو لابد أن يدمـرهم أو يستخدمهم، وقد تذكـر تلك الجلسة التي دار فيها الحديث بينه وبين الاستاذ عـبد الجليل بعيـد تغيير النظام مـباشرة وفي ذلك النقـاش ما يمكن أن يغـضب هؤلاء الحكام إذا ما وصل إليـهم وهو لايقوي علي اغضاب أحد لأن من لا يـاوي شيئا اليوم قد يكون مـسئولا غدا، وهو يقـول إن العسكري كالثـور الهائج إذا استثـير يدمر كل شئ، حاول أن يـستذكر النقاش وقد خـالجته ارتعاشة هائلة وسار الدم سريعا في عروقه عندما تخيل أنه انتقد النظام الجديد وتحـدث باشمئزاز عن المسيـرات الشعبـية ومن نشرات الأخبـار وقد احمرّت وجنتاه كأنمـا كلماته تلك صـارت تصفـعه بشدة، وهو يؤمن بالمـثل الشعبي القـائل (كبيـر ومات أنداده أو غـريب لا يعرف أحـد) فالكبـير إذا مـات أنداده فهـو يـستطيع أن يتـحـدث عـن أي شيء دون أن يكذّبه أحـد، أمـا الغريب الذي لا يعـرفه الناس فـإنه يـستطيع أن يدّعي لنفــه أي شئ، ولم يسعفه من تلك الهواجس إلا مجئ شريكه الذي دلف فجأة وكان بشـوشا ضاحكا كأنه قد فاز بغنيـمة لتوه، ينظر هذا في عيني الشـيخ مباشـرة ويسأل عمـا به وقد لوّح بيـده اليمني المقـبوضة قـائلا، لا عاش من يزعج الشيخ علي، فـيردد هذا،

لاشئ علي وجه اليقين ولكن لا يخلو الإنسان من بعض الهواجس. . جلس الحاج متهالكا علي أريكة أمام الشيخ علي وطفق يتحدث عن التصعيد واللجنة الجديدة في المنطقة، قال، سعينا لتغيير أمين اللجنة لأنه ملأ جيوبه وكان جشعا (يأكل ولا يوكّل) ولم يكفه أنه حصل علي مزرعة كبيرة وابتني لنفسه بيتا بدورين واستجلب له الأثاث من الخارج ولديه أربعة سيارات خاصة وصرف علي علاج زوجته التي لا تنجب أطفالا الآلاف من الدولارات، لم يعد الناس يحسبون ثمن الأشياء بالعملة المحلية وإنما بالدولار، وقد نقل والدته للعلاج بالخارج ثلاث مرات، وأضاف ضاحكا، أي ملأ جيوبه وعليه أن يترك المكان لآخر وأضاف ضاحاكا، أي ملأ جيوبه وعليه أن يترك المكان لآخر ممن يأتون كالعلقمة الضامرة فيمتصّون كل الدم. . ابتسم الشيخ علي ولم يزد علي قوله غير كلمة، خير، ذلك أنه كان يريد أن تكون كل الأزمان في خدمته وقد صا ربيته كما لو كان مركز الكون يأتيه الناس من كل صوب وهو يقول (الظلم لا يدوم والصالح يرجع صالح) كأنما يريد أن يشعر الناس أنه صالحا وأنه ظلم لبعض الوقت لكن الأمور عادت كما أرادها لأنه صالح، وصالح هذا الزمان هو الذي لا يحرّم ولا يحلّل. .

كـان يقصـد الأفراح بعـد أن يكون قد بعث إلي صـاحب الفرح ما يلزم ويكون قد سبقه أحد مستخدميه بحيث يـسمع أكثر عـدد من الناس أن الشيـخ علي قد أشـرف بنفـسه علي شـراء الأشيـاء التي بعثهـا،كما أنه كـان يحرص علي تقديم التـعازي ويحضر الدفن في حالات الوفاة ليواسي أهل الميت. .

ولأن الثورات غالبا ما تقرّب أهل الثـقة وتبعد أهل الخبرة في العالم الثالـث بالطبع فقد صار هناك مصطـلح جديد مرافق لذلك، وهو أهل الإخلاص، ولأن الاخلاص في القلب باعتباره نوعـا من الصدق فـإن الذين يبـرزون هم أهل الملق والتقـرب والمداهنة، وهكذا فقد رجع أولئك الذين كانوا في خدمة النظام السابق ليحتلوا أعلي الوظائف، وبالتالي كان للشيخ علي أنصار وأصدقاء لأنه كان علي علاقة بتلـك الأجهزة عندما كان نائبا في البرلـمان وصاحب شـركات للبنـاء والمقاولات، ولم يـعد في حاجة لأكثر من الإشارة ببنانه لكي يتحول هذا إلي وطني شريف وذاك إلي خائـن وعميل ومـرتد وإذ هو لم ينـسي للأسـتاذ عـبد الجليل ذلك الموقف فقد أصبح هذا شـيوعيا وصار هاربا طريدا في بلده وفي ظل نظام آمن به وأيدّه!!

ألقي القبض علي الأستاذ عبد الجليل للمرة الثانية وكان يعتقد أن اعتقاله في المرة الأولي كان خطأ، الأولي كان خطأ فقد قيل له ذلك بعد أن قضي عدة شهور في السجن وتعرض لكثير من التعذيب النفسي والبدني، وبعد تلك الشهور لم يفعلوا شيئا غير إنهم قالوا له نأسف، وكان يسمع بزوار الفجر والكلاب التي تستعمل ضد المعتقلين السياسيين وعن الاغتيال والقنابل الموقوتة ولكنه لم يكن ليصدق أن أبشع من ذلك يمكن أن يحدث في بلاده ومن شعبه الطيب، وكانت فجيعته كبيرة عندما مورست عليه أشياء أبشع وأشنع من كل ما سمع، ولأنه لم يكن يصدّق فقد كان يسأل، من يكون هؤلاء الذين يستعملون (الفَلْقة؟) وأشياء أخري يخجل الإنسان من ذكرها، من يكون هؤلاء الملتحين ذوى الأشكال الغريبة والقلوب القاسية؟؟ من أين جاؤوا ومن الذي يأمرهم بهذا العمل البشع،مَنْ هؤلاء الذين يتلذذون بالتعذيب والدماء؟ هؤلاء الذين لا يخجلون من شئ ولا يحترمون عمر ولا دين ولا تقليد، هؤلاء الذين يسعدهم الصراخ والعويل، وما كان يخطر بباله أنه يمكن أن يصلب إنسان ورأسه في الأرض ويضرب بقسوة على رجليه وتمارس فيه أبشع أنواع التعذيب في ظل ثورة رفعت شعارات يؤمن بها.

ويفكر كثيرا كـأنه يندم علي ماضيه فقد كـان يتحدث عن الوطن والكرامة وحق الإنسـان في العيش الكريم، وكان يؤمن ويتحدث مع طلـبـتـــه عن حـب الوطن الذي ضـــحي من أجـله الآباء والأجداد، فـيقـول أي كرامـة وأي وطن وإنسانيـة وأي قومـية ووطنية، وكيف لإنسان أن يحب وطنه بينما أنفه يمرّغ في تراب هذا الوطن بقـسوة وشـراسـة، كيف لإنسـان أن يكون مـواطنا صالحـا في حين أن رأسه ينكّس ويضرب علي رجليـه وتمارس فيه أبشع وأشنع وسائل التعذيب؟؟ ثم يتراجع عن هذا التفكير، لا، لايمكن أن يـكفـر بالـوطن ذلك أن ثمنا لابـد أن يدفع في سبيل المثُل والمبادئ، ولكن كيف؟ ولماذا؟ فهو لا يعرف حتي لماذا اعتقل وعذّب!، وهو لم يفعل شيئا، بل علي العكس فقد كان مؤمنا بـالثورة، مؤمنا بمبادئـها الوطنية والقومـية، هو حائر حـتي لكأنه سيـفـقد عـقله واتّزانه، من إيمـان مطلق إلي كفـر مطلق، ذلك إن الواقع مـختلف والحقـيقة مـرعبة تزلزل كـيان الإنسان مهما كان إيمانه لأن هذا الإنسـان لم يخطر بباله إن شيئا كهـذا يمكن أن يحدث في بلاده وبـاسم المبادئ التـي آمن بها وقامت من أجلها الثورة!!

وعندما اعتقل الأستاذ عبد الجليل في المرة الثانية كان قد اقتيد ليلا دون أن يعرف عنه أحد شيئا وقد طفق شقيقه الوحيد الذي يعاني من مرض الربو يبحث عنه ويسأل لدي الأجهزة دون أن يدلّه أحد علي مكان وجود أخيه، وبعد عناء شديد اهتدي إلي الشيخ علي إذ صار يبحث عن أولئك الذين كان شقيقه علي علاقة بهم، وفي مقابلته للشيخ علي أمطره هذا بالعديد من النصائح والمواعظ وكان يُظهر وكأنه الحكيم الوحيد القادر علي معرفة الأمور حيث يردد أنه دائما كان ينصح وكان يقول وكان يعمل إلخ . .

وكان علي شقيق الأستاذ عبد الجليل أن يتقبل علي مضض وبنفس كسيرة وعيون دامعة كل تقولات وحتي ترهات الشيخ علي الذي طفق يعطيه درسا في الوطنية والأخلاق لأنه لا يجوز كماقال لعديمي التجربة والخبرة أن يتقدموا الصفوف، كما لا يقبل التطرف في المواقف، كان يقول هذا الكلام وهو في دخيلة نفسه يعرف أنه يصفّق ويؤيد نفاقا كما أنه يساعد أعضاء لجان شعبية بلا أدني خبرة أو إيمان، وأنه يقف وراء شبكات فساد ورشوة واستغلال وإن حاول التظاهر بغير ذلك . . .

وبعد فترة طويلة من المواعظ وَعَدْ بأن يعرف أين يوجد الأستاذ عبد الجليل وربما أمكنه أن يساعده، ولم يكن شقيق الأستاذ عبد الجليل يطلب شيئا غير معرفة أين يوجد أخاه، وهو لم يكن يعرف أن أخاه متطرفا إلا في تأييد الثورة والإيمان بمبادئها ولكن ماذا عساه أن يقول أو يفعل؟

ومع كل تلك المشاعر القاسية والنفس المتألمة صار يتردد علي الشيخ علي الذي كان يمطره بالمواعظ والكلام الممضوغ المكرر كلما أتي إليه، إلي أن حدث أن أبلغه هذا الشيخ المتبجح عن مكان شقيقه بل هو مكّنه من زيارته في السجن، وكم كانت فجيعته بالغة عندما رأي ذلك الأستاذ الذي كان يتفجر نشاطا وحيوية ومعرفة وعلما قد أصبح هزيلا محطما فاقد السمع متعثر الكلام يتحرك بصعوبة ولا يكاد يعي شيئا، كذلك كانت تلك الزيارة شديدة الوطأة علي نفس الأستاذ عبد الجليل الذي ما كان يتمني أن يراه أحد علي ذلك الشكل والوضع، وكان أهون عليه أن يموت فقد أظلمت الدنيا في وجهه وأصبحت الحياة بائسة كئيبة بعدما واجه ما وقع عليه من عذاب دونما ذنب أو جرم ارتكبه،ورغم ثقل الوضع وانكسار النفس فقد كان يريد أن يُفهم شقيقه شيئا واحدا لأنه يدرك أنه لن يراه

مرة أخـري،ذلك الشئ الوحيـد الذي أراد إيصاله هـو أن يعرف أخيـه وبالتالي يعرف الناس أنه لـم يرتكب جرما ولم يكفـر بما آمن به رغم كل الذي حدث له في سجنه، وكان قـد فكر كثيرا عندما كان قـادرا علي التفكير مقارنا المبـادئ والمثل والأخلاق والآمال وبين الواقع والـممارسـة، بين المبادئ السـاميـة النبيلة والمثل الرائعة والأخلاق الحمـيدة التي ترتبط بالدين بكل ما فيه من سمـو، والآمال في المسـتقبل والتقـدم والخير والاسـتـقرار وكرامـة الإنسان، الأمل في بلد نامي مـستقـر هانئ وفي إنسان يعمل وينجـز ويتقـدم، الأمل في التكاتف والتآخي والتـسامح، والواقع المؤلم المدمر الردئ والممارسـة البشعة الرهيبة، الأمل في أن يري ابنه الوحيد يعيش في جو الحرية رافع الرأي في بلد عزيز كـريم، وبين ما هو فيـه من عذاب ومـهانة وتحقـير لكل شئ، وكم كان يتمني أن يفتح عينيه فـيري تلك السماء الصافية المنقوشـة بالنجوم قبل أن يموت وأن يري تلك اللوحـة الرائعة الجمـال بحيث لايبقي في ذاكـرته شكل سقف زنزانتـه الاسود وحيطاها المبقعة بالدماء وبعض الكتابات التي تعبر عن صرخات الألم والعذاب، ويتساءل، هل كتب عليه أن ينتقل من قبر الدنيا إلي قبر الآخرة دون أن يري الضوء؟؟ يتنهد دون أن يجيب علي

هذا التساءل وقد أغمض عينيه وما يكاد يخلص من أفكاره وتخميناته هذه حتي يقتحم عليه الزنزانة أحدهم، شخص ملتحي كبير الجثة أسمر البشرة في الجزء الظاهر من وجهه فقد اعتاد هؤلاء أن يكونوا ملّثمين كبير الجثة، عريض المنكبين تتدفق الكلمات البذيئة من فمه ذي الأسنان البارزة الصدئة، يجره جرا خارج الزنزانة بعد أن ركله علي جنبه بحذاء خشن، وهو لا يعرف تهمته أو جريمته أو حتي لماذا جئ به إلي هذا السجن الواقع تحت الأرض، في المرة الأولي قالوا له أنه شيوعي وأنه ضد الدين وتقاليد المجتمع في بلد أصبحت تشريعاته إسلامية، كما لو أنه لم يكن مسلما، وهذه المرة ربما يتهمونه بأنه اخواني لأنه سمع أنهم قبضوا علي بعض المصلّين في المسجد المجاور لبيته فجر اليوم وقد صاروا يطاردون كل ملتحي وكل من يأتي للصلاة مبكرا في المسجد، سبحانه مغير الأحوال، وهؤلاء يتحدثون عن الثورة وحمايتها، ويا تري هل تحمي الثورة ومبادئها بمثل هذه الأعمال؟ هل تحمي المبادئ النبيلة بالأعمال الفاحشة والكلام البذئ والتصرفات الخرقاء؟ وهل يبقي شئ من تلك المبادئ بعد هذا الذي يحدث غير الشعارات التي يرفعها هؤلاء المرتزقة وهم يمارسون ما يخالفها تماما؟

وعندما أعيد إلي الزنزانة كان منهكا يسيل الدم من كل مكان في جسده وقد اغلق عليه ذلك الباب الحديد الكبير، حاول أن يفتح عينيه إلا أنه لم يقدر فاغمضهما ولم تفتحا بعد ذلك!!.. مات الأستاذ عبد الجليل الذي تغني بالثورة ومبادئها دون أن يري الضوء.. ولقد اتصلت سلسلة الفساد والرشوة وصار الشيخ علي أحد المتحكمين فيها وكان زبانيته ينظرون بعيونه ويسمعون بآذانه وينفذون أفكاره وقد داسوا علي كل شئ، علي كل المبادئ والمثل والأخلاق وأصبح في نظرهم كل من لايرتشي ويسمسر مغفل وجبان، ثم اعتبروا ذلك النوع من الناس أعداء لابد من محاربتهم وتدميرهم، وعندما يبلغ الفساد ذلك المبلغ ويصير الحكم للمال والعقل كالزائدة الدودية الملتهبة لابد من استئصاله تصبح النساء المنحلات أهم عناصر العمل، وهكذا تكونت شبكة من العلاقات النسائية الآثمة كانت تمارس الدعارة وتجمع المال وتحبك المؤامرات بحجة جمع المعلومات والحفاظ علي النظام القائم، وأصبحت المناصب توزع أثناء جلسات الليل ومن خلال العشيقات، وما أتفه المناصب حينئذ مهما كان رفيعا، وهذا النوع من الناس يدفعون الأمور إلي نقاط التفجر لتوريط أصحاب القرار السياسي في

المواقف الخاطئة والحرجة وهم بذلك كالسوس يدمرون من الداخل وينهشون في الأحشاء كما يأكلون الدعائم بهدوء إلي أن يتهدم كل شئ فيجلسون علي الاطلال مصفقين.



(٤)

ولأن الثورة لم تأتي من خارج البلاد والذين قاموا بها أو شاركوا فيها أو انضموا إلي مسيرتها فيما بعد هم أيضا من مختلف العائلات الليبية وإن كانت مستوياتهم الثقافية والاجتماعية والفكرية متقاربة فقد كانت البداية في العمل أنموذجا للتفاهم والتعامل والتعاون، فهم كفريق كرة جيد كل واحد منهم متمم لمهام الآخر، كل منهم يبذل ما وسعه من جهد بغية تحقيق النجاح في انجاز أهداف نظيفة ومثلي..

وكان العمل الثوري بطبيعة الحال مسئولية كبيرة ونظرا إلي أن الثورة تغيير سياسي واجتماعي واقتصادي وفكري وسلوكي فقد اختلفت المشارب بعد حين من الوقت واختلفت الأساليب وتعددت الغايات، وعندما يحدث هذا وهو لابد أن يحدث فإن الانتهازيين وأصحاب المصالح والمطامع تتيسر مهامهم وتفتح الأبواب التي يدخلون منها ليغذّوا أي خلاف أو اختلاف مهما كان صغيرا، وفي باديء الأمر لم يكن أحد يعرف أو على علاقة بقيادة الثورة، وعندما عرف الناس أولئك القادة ورئيسهم صار هؤلاء متميزين عن بقية الضباط ثم عرف أن هناك تنظيما يسمي

تنظيم الضباط الأحرار دون أن يعرف أحد الأسماء أو العدد ولذا فقد صار كل ضابط يعتبر نفسه من ضمنهم حتي لو كان مرشحا أو طالبا في إحدي الكليات العسكرية ولم يمارس أي مسئوليات قبل قيام الثورة!! فإذا كانت الثورة قد استعانت بكل الضباط الصغار منهم والكبار في بادئ الأمر بما في ذلك طلبة الكلية العسكرية لذا فهم لابد أن يتميزوا أيضا..

وللشباب عيوبه كما هي مزاياه، وهي التسرع وعدم الخبرة وعدم تقدير الأمور والمسئولية ورغبة التمتع والانغماس في الملذات أحيانا بلجاجة شديدة، كما عدم التجربة والدراية بالناس وأحوال البلاد من موقع المسئولية التي جاءت فجأة، ولابد للمجد وأكاليل الغار من مظهر اجتماعي وخيلاء وهذه تؤدي إلي حب النفس والظهور، وهنا تلعب التربية دورا هاما بما فيها تلك الموروثات في فترة الطفولة والشباب كذلك المصالح المالية والعائلية والقبيلية والأسرية وهذه تؤدي إلي ارتباطات وعلاقات لابد أن تؤثر وتلعب دورا هاما في الوظيف واتخاذ القرارات..

ومن مظاهر الثورات أو الانقلابات في العالم الثالث اجراء المحاكمات لاظهار سوءات النظام أو النظم السابقة، وهكذا

تشكلت محكمة تسمت باسم (محكمة الثورة، أو محكمة الشعب) ومنذ اللحظة الأولي كانت هزيلة ولذا فقد انقلب الوضع فصار المتهم أقوي من القاضي وقد مثلّت مسلسلا يضحك ويبكي، ولعبت أجهزة الإعلام ومنها الصحافة التي كانت تواجه نفس التهمة دورا تخريبيا كعادتها في دول العالم الثالث والنظم الشمولية، وكان رجالها وقد حاولوا اظهار النظام السابق علي أنه عميل وخائن وجاهل يقولون أن حذاء العسكر ثقيل الوطأة وهم يريدون المحافظة علي مصالحهم ولهذا فإنهم لا يجب أن يُغضبوا هؤلاء العسكر بأي شكل، وتحول النواب السابقون إلي أبطال معارضة وصار الشعب كله يهتف ويتظاهر ويرفع الشعارات الجديدة والصورُ الجديدة، وهذه المرة كانت الصور عسكرية تعلوها رتب في شكل تيجان مقلوبة، ربما إذا كان الانقلاب قد حدث فلابد من قلب التاج أيضا الذي يمثل رتبة عسكرية في العهد السابق، وقد بدأت المفاوضات حول القواعد العسكرية وهذه كانت جادة فقد ظهر منذ البداية أنه لابد للقواعد والقوات الأجنبية من الخروج، وإذا كان الناس قد هزأوا من المحكمة وأساليب رئيها فقد احتفلوا كثيرا بشأن الجلاء وتحرير أرض الوطن من الأجانب ولأن الانجازات كانت

كبيرة باهرة فقد كان هناك أصحاب أدوار وهؤلاء لابد أنهم كبروا عن حجمـهم، والسفينة بطبيعة الحـال لا يقودها إلا ربّان واحد (كما يقـال رغم أن هذا القول يتجاهل أن هنـاك أناس يساعدون هذا الربّان ولا يمكنه بدونهم قيادتها مهما بلغ منْ الذكاء والفهم وحتي العـبقـرية) وهو أي هذا الربّان لا يؤدي إلا دورا اشرافـيا بينما يساعده العدد الكبير من أصـحاب الاختصاص في مختلف فـروع العلم والمعـرفة ولكنه لا يـستطيع قـيادة السـفينة إذا مـا تداخلت الأدوار والمسئوليـات، وعندما يحـدث هذا فلابد من مخرج، ولأن بروز بعض الناس كان أكـثر من اللازم فقد حدث خلط الأوراق بذلك الشكل المـثير المـتمثل في الغـاء القوانين وتشكيل المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية..

وكان صـاحب الشـأن يراقب الأمور باهتـمام وعناية مـحللا باحثا إذ انه كان ومازال يري في تجربته الأمل والمسـتقبل وهو لا يريد أن تتـوقف في منتصف الطريق رغم أن أدواتـها ظهر أنـها سيئة فاشلة انتهازية ولابد أنه يعـتقد أن ظهور تلك السلبيات في التطبيق قـد يكون مفيدا ذلك أن تخطي مـراحل التطور أو حرق المراحل كـما يقال أحـيانا يحتـاج إلي كشف الأسـاليب بأسرع وقت ممكـن، وانتهازية هؤلاء النـاس تكشفهم وتـعريهم، وإذا

كان قد أعطي هذه العناصر فسحة كبيرة من الوقت وفرصة كبيرة للعمل فانه لايمكن أن يترك لها الأعنة لمزيد من الفساد والافساد وخصوصا أنه قد حدث أن فترة الاختبار تلك قد خلقت طبقة من محدثوا النعمة الغارقون في السكر واللهو والفجور، ومن هذه الطبقة ضباط في الجيش وأعضاء في المؤتمرات واللجان الشعبية وموظفون كبار وصغار، ومقابل هذه الطبقة كان هناك طابور طويل من المساكين الذين نزل عليهم الشقاء بسبب السوق السوداء والتهريب والغش والتضخم الذي وصل بقدرتهم الشرائية إلي مستوي الصفر وكانوا يمثلون غالبية الشعب البائس الذي يئن تحت وطأة الفقر والفاقة وربما التسوّل في حين انهم يعرفون أن بلادهم غنية وأن أموالهم تسرق وتهرّب إلي الخارج . . وعلي الرغم من أن الفقي مصباح كان متفائلا ويشعر بالأمل القريب إلا أن شخصا كان يهمس في أذنه كما يهمس الشيطان قائلا،إن الحياة لا تسير علي نفس المنوال في أماكن أخري إذ لا يعاني الكدر إلا من مسه الفقر أو الظلم أو المرض أو من أشقاه عقله وضميره مما يري ويسمع،ومن العادة أن هؤلاء الذين تغمرهم الحياة بمباهجها حلال كان أم حرام لا يأبهون لشقاء وتعاسة الآخرين وأن كل ما في الدنيا زائل كما اعتاد أن يردد الفقي مصباح . .

ولو كان بؤس الناس ناتج عن سبب طبيعي لهان الأمر كما أن الغني والبطر لو جاءا بسبب من خدمة أو علم أو إبداع لصار الأمر مقبولا إلا أن الواقع عكس ذلك تماما، ومن المفهوم أن بهارج الحياة لدي بعض الناس يقابلها شقاء أناس آخرين في أي مكان في غير بلادنا لأنه كان يمكن أن يكون الجميع سعداء هانئين ولابد أن سعادة الناس جميعا كانت أحد أهداف الثورة، أي ثورة، أو ربما أحد أهداف صاحب الشأن الذي يردد اسمه الفقي مصباح ليلا ونهارا ولكن أغلب المحيط ينبه عكسه تماما، وفي بلاد العالم الثالث من يملك المال والسلطة لا يطبق عليه القانون ولا تقف دون رغباته ونزواته اللوائح أو الاجراءات، وعندما تسن القوانين وتكثر المحرمات فإن أبواب الفساد تفتح علي مصاريعها ويتسابق السماسرة علي تقديم الخدمات ذلك ان تلك الممنوعات أو المحرمات يقابلها تجاوز وسلطات غير عادية وغير محددة ويكون كل مسئول عسكري كان أو مدني، كبيرا أو صغيرا يملك حق المنع والتصريح ومن هنا يحدث الفساد والرشوة والاستغلال، وتتكون عصابات شريرة تسيطر علي كل شئ ويصير للنّمامين وأصحاب مواهب التنصت علي الناس مكان أثير لدي هذه العصابات، وتصبح الحياة لا تطاق ويتبوأ

المناصب عاطلي العقول فاقدو المواهب والذين لا أصل لهم ولا فصل، ولقد حدث تحول رهيب في حياة هذا المجتمع الذي كان بسيطا قنوعا مضيافا حيث أن كل شئ أصبح للبيع والشراء وقد سيطرت المادة، فانت لا تستطيع قضاء حاجتك إلا بالرشوة أو تبادل المصالح فإذا كان لديك ما تقدم يمكنك أن تأخذ، ذلك إن كل شيء قد فسد وانتشرت شبكات الانتفاع والواسطة ولقد انهارت المثل والمبادئ والأخلاق كما ينهار جبل من الثلج فجأة، ولا يعرف المرء لماذا يحدث أو حدث هذا الوضع؟

كيف يكون النظام معاديا لمواطنيه يطاردهم بالقوانين والأوامر الظالمة؟ وحتي لو افترضنا أنه يمكن لشخص ما أن يفرض أخلاقياته وسلوكه علي كل الناس فسوف لا يمكنه أن يجد تفسيرا لتغير هذه الأخلاقيات والسلوكيات كل يوم، فلقد بدأت الاجراءات الصارمة لتطبيق التشريعات الإسلامية وحدث أن طورد من يخرج أو خرج عن ذلك المعني ومنعت جميع المشروبات الكحولية كما قفلت المحلات العامة التي اعتبرت منافية لقيم هذا المجتمع مثل النوادي الليلية وغيرها وقيل إنها أماكن لهو ومجون!! وبذلك يكون اللهو والمجنون قد تحول إلي البيوت، بيوت أصحاب السلطة والمقربين، ثم صارت الأمور

في اتجاه آخر وبدأت مطاردة أولئك الذين تمسكوا بالدين وقيم المجتمع الإسلامي وبينما كان يسجن من يدخل خمارة حدث أن سجن من يدخل مسجدا أو يكون ملتحيا!؟ ومن الطبيعي أن يبالغ أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك في ممارساتهم وبالتالي يخرجون عن المعتاد والمقبول ومن هنا تحدث المعالجة بتأييد وتشجيع الاتجاه الآخر أو المعاكس وقد يؤجج الخلاف ويحدث الخصام والكراهية بين الناس،هؤلاء الناس كانوا في الغالب اطهارا، كما تتحدث أيها الشيخ!! انك تعيش وهما رهيبا وتنتظر مجهولا لن يأتي بعد.. ولكن الفقي مصباح لا يفقد الأمل ولا يأبه لهذا القول وهو يدرك تماما أنه علي حافة القبر ولا يريد أن يفارق الحياة دون أن يشهد أمله يتحقق، دون أن يري أن الحياة عادت إلي طبيعتها وأن القناعة والطمأنينة قد سادتا في البلاد..

ذلك أمل، وآمال المؤمنين لابد أن تتحقق، ليس هناك ما يندم عليه في حياته فقد كان مؤمنا صادقا وقنوعا ومازال كذلك، ومع ذلك صار يفكر في هذا الذي همس به مجنون آخر ياويه هذا المبني القديم، مستشفي المجانين..

صحيح انه رأي أهل قريته قد تغيروا وبدت حياتهم كقطار مسرع في اتجاه مجهول علي قضبان من نار وقد تخلّوا عن كل

شئ بما في ذلك العادات والتقاليد الطيبة، لكنه لا يعرف ما هي الرشوة والسمسرة إذ لم تكن المعاملات في عهده إلا بالحسني والعمل برحمة الوالدين،لم يكن يعرف حتي كلمة شكرا، لأن الناس كانت دائما تترحم علي الوالدين فعندما يقوم أحد بأي عمل يقال له، يرحم والديك، وكان الناس يهرعون إلي المساجد عند سماع الآذان تاركين كل شئ، المتاجر مفتوحة والأشياء موضوعه كما هي، ويؤدون الصلاة في تؤئدة واطمئنان كاملين ثم ينصرفون متوكلين علي الله حامدين فضله ونعمته، لم تكن هناك أبواب حديد ولا حرّاس، ولا أحد يعرف السرقة أو الاعتداء علي أموال الغير، وكانوا قادرين علي الضحك بدون تصنّع ولا رياء أو ملق..

وكعادته بينما كان يجمع الحصي طفق يفكر في وضع هؤلاء النزلاء، صحيح أنه ليس له زوجة وأولاد لكن هؤلاء لابد أن لهم زوجات وأطفال وأن تلك الأسر وقد فقدت عائلها تكابد مشاق الحياة التي صار يسمع عنها كل مستغرب ومنكور، وهذه البلاد وقد اختل ميزان العدل فيها حيث صارت الرشوة تسمي مصالح والغش يسمي شطارة وفتحت الأبواب لكل من هب ودب وبالتالي صار (اللي تحت فوق!!) اطرق قليلا وقد طوّق

ركبتيه بذراعيه واقعد ذقنه فوقهما منكّسا رأسه كأنما أراد أن يثقب الأرض بعينيه، في هذه الأثناء فوجئ بمن يناديه قائلا أن هناك زائر يسأل عنك، ولا يذكر الفقي أن أحدا قد سأل عنه طيلة المدة الماضية أو أن أحدا يمكن أن يتذكره أو يسأل عنه أو يعرفه. . تطلع في المنادي إذ أدار رأسه دون أن يرفعه ولم يجب بشئ إلا أن الطلب تردد وبصوت أكثر إلحاحا، هناك زائر يا فقي مصباح، فك يديه بهدوء ووقف متثاقلا واتجه إلي مكان الزوار بخطوات متعثرة وكان يصهر وريقات شجر يابسة في يده اليمني ولم يسأل وإنما مد يدا باردة عندما تقدم إليه الزائر، ولأنه لم يألف الزيارات فانه لم يسأل عن شيء إلا أن زائره طفق يتحدث عن القرية وأيام زمان وأحوال الناس والشيخ علي والمسجد العتيق وذلك الطريق المترب الذي يشق المقبرة والمزارات ولقاءات (الكّندوره) حيث كان الناس يستمعون إلي حكايات الزير سالم وأبو زيد الهلالي والخفاجي عامر. . ولم يكن الفقي مصباح قد نظر بعد إلي وجه الزائر، هذا الزائر الطارئ وغير المتوقع أو المنتظر، إلا أنه عندما سمع هذا الكلام ظهر عليه الاهتمام حيث ارتعشت يداه وتصلّبت عضلات وجهه، وعندما رفع رأسه المتعب قليلا تراءت للزائر دمعة متجمدة كأنها في

منطقة انعدام الوزن، ولم يقو الفقي علي الوقوف بعد ذاك فجلس علي لوح خشبي مستطيل وجلس بجانبه الزائر، وكان لهذه الزيارة صداها في المشفي أو السجن إذ لم يحدث أن زار أو سأل أحد عن الفقي كما أن الزائر كان علي جانب كبير من الأهمية فيما يظهر من هيئته فهو يرتدي ملابس أفرنجية مع رباط عنق أنيق وحذاء لامع وهذا غير مألوف إذ أن الناس مثلما أهملوا في أخلاقهم أهملوا الاهتمام بلباسهم ومظهرهم وحتي أولئك الذين يتطّلب عملهم المظهر اللائق لم يعودوا يرتدون إلا ملابس قيل إنها وطنية وهي ليست من الوطنية في شئ لأنها مجرد قماش أبيض أو أزرق فاتح صنع وحيك في الصين، ذلك أن جميع الأعمال يقوم بها أجانب ولم يعد الليبيون يعملون شيئا غير تصنّع الكلام في كل شئ بمناسبة وبغير مناسبة، كان هذا الزائر يتحدث عن قرية الفقي مصباح وعن تلك الأيام الخوالي وكيف كان حال الناس وقتئذ، وكان في منتصف العمر مما آثار شكوك الفقي ولم يكن قد سأل زائره عن أي شئ غير النظر إليه بين الفينة والأخري بعيون غائرة وإن كانت حادة مركّزة توحي بالثقة والتصميم،وكان من عادته أن يتفحّص الأرض وهو يشبك أصابع يديه عندما يجلس مع أحد ويصيخ السمع،ولقد بدت له

الأمور في غاية الغرابة إذ من ذا الذي يعيد شريط الذكريات عن القرية والشيخ علي وعن عـثمان الفلاح البـسيط وأحواله وكيف ترك القرية واستقر في المدينة ثم تحول إلي مقاول ورجل أعمال يزور البلاد المجاورة وعن زوجته خـديجة التي تركها في القرية مع ولديه إلي أن ماتت بمرض الـسل، وهنا رفع الفقي رأسه وقد ألتمعت عيناه كأنما شيئا عظيما قد استيقض في وجدانه وبعد أن تفحّص جيـدا وجه محدثه قـال أن تفاصيل حديثك ومـعرفتك لتلك الأمور توحي بانك ربما من أهل القرية وإن كنت ليس من أهل ذلك الزمان لصغر سنك فـقل لي من تكون وكيف عرفتني أو سمـعت عني ولماذا تزورني أنا هذا الإنسـان الذي لا أهل له أو أقارب أو كمـا يقولون (المقطوع من شجـرة) بل ومجنون؟؟ وقد صـارت عيناه لامـعتـان صارمـتان ويداه ترتعـشان وكـانتا مـمدوتين إلي الأمـام، كان بهـذا السؤال كـأنه يتضّـرع دون أن يبتسم وكان وجهه صارما وعابسا وهو يحدّق في وجه الفتي دون أن تطرف عيناه علي الاطلاق وهذه عادة قديمـة فيه عندما يولي شيئا ما اهتمام خاص..

ذكر الفـتي اسمه واسم أبيـه وكيف أنه عـرف الفقي مصـباح عندمـا كان في القـرية يؤذن في مـسجـدها العتـيق ويؤم الناس

للصلاة وأنه يتذكّر أحاديثه وذلك الراديو القديم وما كان يحدث بينه وبين الشيخ علي وكيف كان الفقي يعود والدته وهي مريضة..

وخيل للفقي أنه يكتشف شيئا جديدا ما كان يعتقد أنه موجود علي هذه الأرض إذ رأي في محمد ذلك الفتي الخلوق الطيب الذي يمكن التحدث معه، ولابد أنه نزيها وإلا ما كان يتحدث هكذا ولا حتي فكر في هذه الزيارة من الواضح أنه يحمل علي أكتافه هموم بلاده وأهله وذلك حمل ثقيل علي فتي في هذا العمر، ولأول مرة يتبسم الفقي مصباح وقد اغرورقت عيناه بالدموع وبرزت عظام وجهه حتي لكأنها ستثقب الجلد ومال أنفه بسبب تجعّد الوجه، ربما شر البلية ما يضحك حقا..

في هذه الأثناء كان محمد ذاك ينظر بعين الشفقة إلي تلك الأسمال البالية التي رتّقت بخيوط مختلفة وهي علي جسم الفقي وذلك الحذاء المثقوب من جهة مقّدمة الرِجْلَ، وكان الفقي مصباح يستخدم حذاء بلاستيكيا قديما ينتزعه من قدميه عندما يجلس على الأرض، وهو ما رآه محمد متقلوبا وتساءل ما إذا كان ذلك امتحان من الله سبحانه وتعالي ذلك إن هذا الرجل الصالح لم يرتكب جرما في حياته ولا عملا مسيئا

ولاأكل مالا حراماً أو هو أساء لأحد ولا كان إلا فاعل خير تقي ورع يؤذن في الناس ويؤمهم ويدعوهم إلي الخير والصلاح، يدعوهم دائما إلي عمل الخير والتآخي والتعاون، سبحان الله، وقد عادت به الذاكرة إلي أولئك الذين يرفلون في النعيم من كسب الحرام والنفاق والكذب..

كان الفقي مصباح يتصبّب عرقا وكان ساهما خلال فترة الصمت القصيرة بعد كلام محمد، ثم قال أين نحن من ذلك الزمان وأولئك الناس؟؟ فقد كان لنا مُثل عليا واهتمامات سياسية واجتماعية نشترك فيها ونعمل علي تحقيقها والمحافظة عليها، كنا نلتقي للتحدث عن الوطن والدين وصاروا لايلتقون إلا من أجل المنفعة، كلامهم نفاق وعيشهم علقم ونومهم قلق، لم يعد الصغير يوقّر الكبير ولا الابن يحترم الأب ولا البنت تقتدي بأمها..

الحاجة لا تقضي إلا بالرشوة، لا تقضي بالمعروف لأن طالبها متملّق وقاضيها منتفع، يتوقف قليلا ليلتقط أنفاسه، يحّس الانسان في هذا المجتمع بالغربة والبؤس ووخز الضمير، ثم يقول، بوسع المرء أن يداهن من أجل بعض المصالح ولكن ليس إلي هذا الحد المزري!! كان محمد هذا فتي في مقتبل

العمر عريض المكبين مـقرون الحاجبين، كتفيه عـريضين لحيته مقصوصة بشكل منـسّق خفيف وشعر رأسه أسود، جبينه عريض وبشرته تميل إلي الســمرة من لفح الشمس ربما، ولبـاسه بسيط نظيف ومنظّم خـلافا لكل الناس الذين رآهم الفـقي في تجواله الطويل قبل أن يُدخل المشفي أو الســجن، ولقد ذكر للفقي أنه حاول مزاولة بعض المـهن ومنها التجارة إلا أنه وجدها جمـيعا تقوم علي النصب والاحتيال والمـضاربة والغش ولهذا فهو يزرع أرضه كالعادة القديمة، القمح والشعير ويرعي غنمه ويعيش حياة بسـيطة ويكاد يكون منقـطعا تمـامـا عن التـعـامل مع الناس، وأضاف، لقد هاجـرت بنفـسي إلي الصحراء، وقـبل أن ينصرف وعد بزيارة أخري..

ودعّـه الفقي مـصبـاح دون أن ينهض من مكانه وهو مـازال طاويا سـاقـيـه واضـعـا ذلك الحـذاء القـديم تحت ركـبـتـه اليـمني. .ولقـد ثبّت عـينيه الحـزينتـين في وجـوه هؤلاء وهم يسألونه عن الزائر وكيف اهتم به، ويظهر أن زيارته أضفت علي الفقي بعض الاهتمام والأمل وقد توضّح ذلك في أنه بقي جالسا وعاقـدا يديه علي صـدره دون أن يبدأ بجمـع الحصي كـالعادة وتوزيع الأدوار علي جـنوده الذين تمـثلهم تـلك الحـجـارة أو

الحصي وكان يعرف أن لا جدوي من الشرح الذي سيكون مملا وهو يحس بانـقـبـاض في صـدره وحنق عـلي هؤلاء الذين لا يصدقـونه خصوصا أمـين اللجنة الشعبـية الذي يري فيـه الفقي خنزيرا قذرا والـذي كان بين هؤلاء الناس،وقد فـكّر بادئ الأمر أن يبصق في وجوهم إلا أنه عدل عن ذلك وأراد أن يثير فضول ذلك الخنزير وأن يرعبه ويجعله يرتعد أمام هؤلاء الجمع، قال، صاحب الشأن شكل لجانا للتحقيق من أجل القضاء علي الفساد والانحراف ومـعاقـبة العابثـين والمـستغلين والمرتـشين والذين يستخدمون نفوذهم ومناصبهم من أجل الاثراء غير المشروع وأنه سيـعلن ذلك في خطاب رسمي بمناسبـة العيد وسـوف تحدث تغييرات كبيرة وكثيـرة ويعاد للقانون هبته ومن المؤكد أن اللجان الشعـبية ستلغـي ويعاد بناء الدولة علي أسس سليمـة،وسيطلق سراح المسـاجين السياسـيين فجر يوم ما ولابـد أن يكون قريبا وذلك سيحـدث هزة كبيرة في البلاد وسيـفرح ويحصل كل ذي حق علي حقه..

ففـغر أمـين اللجنة فاها بينـما انهمـرت الأسئلة علي الـفقي مـصبـاح، كيف عـرفت ومتي سـيحـدث ذلك ومن هذا الذي زارك؟؟ ونظر أمين اللجنة فجأة إلي السماء كأنما هي تهبط عليه

بشكل مدوي وصــار كل شئ مظلما في وجــهه وربمــا دقّ قلبه بعنف شديد إذا كان فيه قلب ينبض،وتــمتم ببضع كلمات لعلها نوع من الدعاء ولكن هل يقبل الله دعاء الظالمين المفسدين؟

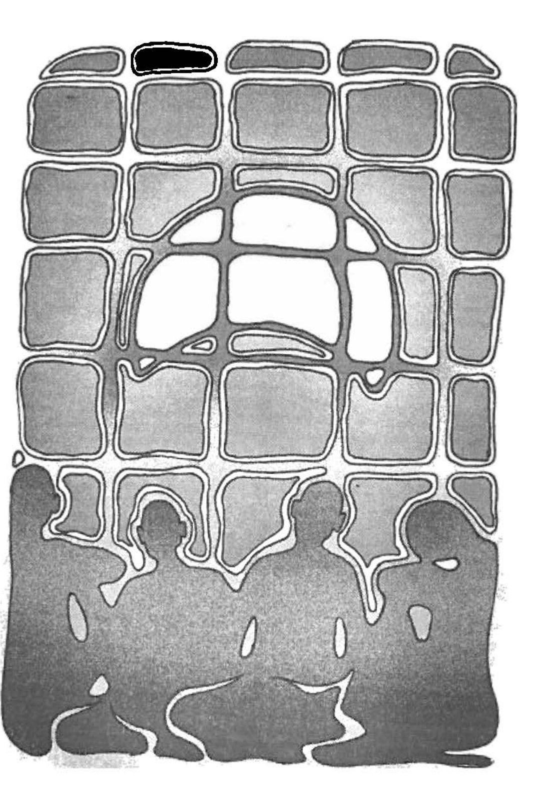
ولا يرعب عــادة الشارق إلا القــانون والعدل وتلك حــقيــقة أزلية، وممــا لاشك فيه أن مثل هذا الأمــين يعرف أنه لص وأن تلكم الاجــراءات ســوف تنجّر علــيه مــتي طبــقت كــغيــرة من اللصوص والمرتشين الكثيرين. . .

أما السجناء فقد تفاءلوا خيرا رغم أن الفقي لم يرد بشئ علي أسئلتــهم وإنما أطرق متــفكرا كأنه يريد أن يقرر شــيئا ذا أهمــية بالغة، وقد داهمت أمــين اللجنة الشعبية هذه الأخبــار كالطّوفان انصرف مترنّحا كما لو كان قد ضرب بمطرقة حديدية علي رأسه وقــد تفــوه قــائلا، الفــقي المــجــنون بدلا من الهــذيان صــار يتنبأ،هه،خذوا الحكمة من رؤوس المجانين. . ولم يكن الفقي يهتم بصخب هؤلاء الذين تحلّقوا حوله ولا بأسئلتهم الملحاحة ولا ذلك الجــو المتــوتر الذي ساد بعــدئذ وإنما داهمــته رغــبة جامحــة في أن يتخلص من ذلك الإحــســاس اللعين الذي أطبق علي حيــاته، الإحساس باليــأس والمهانة، ذلك أن الدنيــا ربما ماتزال بخير طالما وجد الناس الطيبين مثل محمد، ساد الصمت

وهدأت الضجة ولف الكون الليل الذي بسط رداءه علي المنطقة وتلألأت النجوم في السماء ذلك التنظيم البديع الإلهي، وتسرّب نسيم المساء منعشا كأنما جاء خصيصا ليخفف علي الأرض حرارة النهار الذي كان قائظا، وبوجل شديد قرأ الفقي ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٨)

وفجأة ظهرت السحب ولبدّت السماء حيث اصبحت النجوم تري باهتة وقد ومض البرق عدة مرات، انه الخريف وان امطرت فسيكون المطر غزيرا، تفاءل الفقي مصباح بوميض البرق وتذكر كيف كان الناس يعدّون العدة أيام زمان عندما يومض البرق ويهطل المطر، البرق يضئ الأرض وينبئ بمجئ المطر ويضئ القلوب، القلوب إذا كانت مؤمنة صادقة صافية، لكن المرء ليتساءل باي مقياس يمكن ان يقيس رذائل الناس وفضائلهم وكيف يمكن ان يحاسبهم، الله بالتأكيد قادر علي ذلك، ولكن هؤلاء الناس يرون ان ذلك الحساب مؤجل ولا يهابونه وهم لا يتذكرون مثل ذلك الحساب الا عند الموت وزيارة المقابر، وحتي اولئك الذين يقصدون المساجد ايام الجمعة لا يؤدون الصلاة كما يجب وربما يعتبرونها تقليد اجتماعي فقط، وهم

يهرولون خروجا فور انتهاء الصلاة ويتزاحمون علي باب الخروج.. تنهّد بشدة ووقف متثاقلا ليتحرك من مكانه الذي جلس فيه طويلا هذا اليوم..



(٥)

لم تكن المرة الأولي التي يري فيها الفـقي مصباح شروق الشمـس إذ اعتـاد ان يـتيقض مبكرا لأداء صالة الفـجر، ولكنها المرة الأولي التي يري فـيها قرص الشـمس مستـديرا معلنا عن ولادة يوم جديد، ولاحظ ان الشـمس في شروقهـا تشبه القـمر فهي تبعث اشـعة دافئة وتبث النور في الكون، ولقـد مرت عدة اسابيع علي زيارة محمد دون ان يحدث شيئا مما سمع ودون ان تتكرر الزيارة، وصـار ينتظر تلك الزيارة المـتوقعـة كمـا ينتظر شمس كل يوم، ومع كل شـمس يتفاءل ولكن الأيام تمـر ثقيلة مملّة، والخريف عادة مكفهر، والفقي في فصل الخريف وعمر الخريف وتلك مرحلة كئيبـة في حقيقة الامر رغم الايمان الذي يملأ القلب. . وفي ذلك الصباح كان الضبـاب كثيفا كالعادة في تلك المنطقة الجبليـة المرتفعة جدا وقد الفه الفـقي مصباح منذ كان يؤم الناس في المـسجد العتـيق وكان يتبـين الطريق الترابي الضيق الذي يخترق المقبرة بصعوبة بالغة عندما يصحو من اجل آذان الفجـر، ولابد ان الحياة تكون مـملة عندما يفقـد الانسان الامل ولا يبقي له الا ذكريات تؤرّقه، وربما ذلك هو السـبب في ازدياد حالات الانتحار وان كان الدين لا يقر ذلك. .

يعود الفقي في المساء ليقبع في زاوية من مغارة سميت حجرة نوم منهوكا وهو لا ينام الا متكئا علي الحائط واضعا عكازه بين رجليه، ذلك العكاز الذي يرافقه منذ زمن، ومن يراه يمشي يلحظ انه يسير علي ثلاث، وقد الف تجوال تلك الصراصير في كل مكان وهي التي تحدث خرخشة عندما تقع بين خيوط العنكبوت التي تتدلي من السقف وجوانب الحيطان، ومعه في هذه الحجرة سبعة اشخاص آخرين هم ايضا مجانين في نظر الذين جاؤا بهم إلي هنا وفي نظر إدارة المشفي كذلك، ويتكّور بجانب الفقي أحد رفاقه في هذا النزل واسمه احمد وهو في العقد الرابع من العمر، طويل القامة، وجهه مستطيل وشعره كث وانفه معقوف كما لو كان فارسي الاصل، جسمه ضامر تكاد عظامه تبرز من الجلد، نظراته متوترة دائما، يجيد اختيار الكلمات في شكل مسجوع، من عادته ان ينظم حاجياته القليلة، لا يزوره احد كأنما هو من بلد آخر، ويليه محمود وهذا ايضا في العقد الرابع من العمر، وجهه مستدير وانفه افطس وعيناه سوداوان واسعتان، شعر رأسه منحاز إلي الخلف متكور اكرش، منكبيه عريضان وبشرته قمحية متوسط الطول كثير الكلام يثرثر بما لا يفيد ولا يجدي، قلوق شكّاء والثالث عبدالله وهو كثير الشبه بمحمود وان كان يختلف عنه في طول

القامة لا يتحدث إلا نادرا، عاطفي تنهمر دموعه لاتفه الاسباب، يحفظ القـرآن ويجيـد قراءته ويحتـفظ دائما في يده بمـصحف قرآن، يداوم علي الصـلاة في اوقاتها، اما الرابع فـهو علي وقد تعدي العـقد الرابع من العمـر نظراته حادة وشعـره اسود طويل صدره ضيق وكـتفاه متـهدلان كأنه يحمل اثقالا، عـندما يمشي يميل إلي الامام وينظر دائما في الأرض لا يتحدث مع احد ابدا ويظهر عليه الاهتمام بـما يجري من احاديث دون ان يشارك، له شارب شعره اسود كثيف،والخامس هو سعيد وهو عجوز تجاوز السبعين من العمر رأسه مكّور ملتـحي يختلط شعر رأسه بلحيته وشاربه، يترك شعـره مهملا دائما عيناه صغيـرتان دائريتان وفمه بلا اسنان، يداه ترتعشان وظهره مقوّس يأكل كثيرا ولكن جـسمه هزيل كأنه لا يهضم ما يأكل، يضع علي رأسه قـبعة مـودّة من العرق جوانبـها يابسة قذرة، لديه نظارة طبـية مشروخة يضـعها احيانا فـوق انفه، طويل القامة لا ينتعل حذاءا ابدا ويري حـافيا في كل وقت ينقل بهما القذارة من المرحـاض إلي الحجرة مما يزيد الحالة سوءا، والسـادس يدعي عبد الله ايضا وهو شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز العقـد الثالث من العمر يبتسم دائما كأنه يري اشياء لا يراها غيره، وجهـه مستدير ابيض وعيناه زرقاوان، حليق الوجه والشـارب، شعر رأسـه املس ومنكبيه عـريضين،

صدره واسع كأنه مصارع أو ملاكم، خطواته سريعة كثير الحركة والتجوال لا يستقر في مكان، لا يشتكي أو يتألم كما لو كان قد جاء إلي هذا المكان طوعا حتي ان النزلاء يعتقدون انه مدسوسا عليهم لنقل الاخبار خصوصا انه يهاجم نظام الحكم بمناسبة وبدون مناسبة ويثير مواضيع سياسية، يدندن باغنيات خفيفة تظهر شغفه بالحياة، ينام منكمشا كالدّودة ويتصرف احيانا كالابله، يحب لعب الكرة وحده ويصنع من الجوارب والخرق القديمة كراته التي يلعب بها، والسابع يدعي خميس وهو اسود البشرة تقاطيع وجهه زنجية ابيض العينين غليظ الشفتين، رأسه مكّور ذي شعر اجعد قصير، طويل القامة عريض المنكبين يداه طويلتان حتي لكأنهما اطول من رجليه، اذنيه صغيرتان اجدليتان، كثير الكلام قلوق مشاجر غضوب متبّرم يأكل كثيرا مهما كانت رداءة الأكل، قذر جدا فهو لا يغسل حتي يديه في اي وقت، يثير اشمئزاز الجميع برائحته وقذارته، لا ينام في مكان واحد يشخر كثيرا عندما ينام ليلا أو نهارا، يضع علي رأسه طاقية بيضاء في الأصل الا انها صارت سوداء من الوسخ لا ينزعها من فوق رأسه إلا إذا وقعت وهو نائم..

كان الفقي مصباح مع كل هذا التناقض بين هؤلاء الرفاق في التصرف والسلوك والامزجة صبورا حليما يصحو مبكرا كل يوم لأداء صلاة الفجر وقراءة القرآن وهو دائما السبّاق بتحية الصباح فيقول، صباحكم بالخير والصحة، ولا يهتم إذا لم يرد عليه أحد..

جميعهم يرتدون ملابس وطنية الشكل صنعت في الصين وهي من قماش اما ابيض أو ازرق فاتح وهي في الغالب مجعدّة لأنهم يرتدونها في الليل والنهار، اما عن الاكل والنظافة فحدث ولا حرج ذلك ان المشرفين لصوص افاقين وإذا كان المؤول لصا فان العامل لابد ان يكون اكثر لصوصية واهمالا إلا من خاف ربه وذلك قليل بين هؤلاء القوم، وكانوا يقولون ان خراب البلد من الاسواق العامة والمسؤولين علي تلك الاسواق ثم صاروا يقولون نفس الشيء عن الجمعيات التي تمثل شبكة سرطانية في البلاد ولولا توفر بعض النقود لدي المساجين التي يشترون بها من عاملة النظافة بعض البيض والمآكولات الاخري لماتوا جوعا، والنظافة هذه تبيع بضاعتها بالثمن الذي تراه وقيل انها تقتسم المكسب مع المشرف، وما الضرر لو مات شخص مثل هذا الفقي الذي يثرثر بكلام لا يعجب هؤلاء المسؤولين؟

ولقد تأخرت زيارة محمد التي كـان ينتظرها الفقي مصباح كل يوم حتـي انه صار متـعبـا من كثرة الانتظـار والذي ربما لا فائدة منه وصـار يري وهو واضعا رأسه بين كـفيه كانمـا يعاني مرض مـا وقد امـتنع تمـاما عن الكلام مع احـد وهو بلا شك مؤمن بالاجل المـحتوم ويعرف ان المرض والكـبر والموت هي من قوانين الطبيعـة، وان كل نفـس ذائقة الموت، لكنه يتمني ان يري الامور وقد استقامت والاخطاء وقد صححت في بلد احب كل حبة رمل فيه وامل أن يراه في مقدمة كل البلدان. .

وذات يوم وبينما كان الفقي علي غير عادته قد بقي متكورا في ذلك الركن الذي يشغله من الدار جاءه احـد العاملين ليبلغه ان هناك زائرا يسـأل عنه وكـان يزئر زئيرا عاليا ولمـا تأخر قليلا قبل ان يتـحرك هزه هذا بعنف كأنما اعـتقد ان هذا العجـوز قد توفي ولابد انه كـان يتـمني ذلك لأن كلامـه لا يعـجب هؤلاء الذين يعملون في المشفي ماعـدا شخص واحد وهو عجوز مثله يعـمل خفـيرا مـهمـته ان يجلـس قـرب المدخل الرئيـسي علي صندوق من خـشب ويترك البـاب الحـديد مفـتوحـا في اغلب الاوقات إذ انه لا يـستطيع الوقوف كل مرة لفـتح ذلك الباب اذا كان مـقفـولا ورغم انهم نهروه عدة مـرات عن ذلك إلا انه لم

يهتم كثيرا وكان يقـول علم الخوف؟؟ لأنه لا يوجد في المشفي إلا مجانين وبعض اللصوص..

نهض الفقي مـصباح ليخرج حـيث كان الزائر في انتظاره وكانت سعادته فائقة عندما وجد انه محمد، كان منتظرا في تلك الحجرة المظـلمة القذرة التي تـسمي حجـرة الزوار، كانت هناك مقاعـد خشبيـة مستطيلة وهي عبـارة عن الواح خشب دقت مع بعضها بمسامير كـبيرة بارزة تشبك في ملابس الجالس احيانا اذا لم يكن حذرا، ورغم السعادة التـي ظهرت علي وجه الفقي إلا أنه مـد يدا باردة هزيلة كـما لو كـانت يد مـيت وقال بصـوت متهدج اجش اهلا يا مـحمد، فرد محمد التـحية وهو يشد علي يد الفقي دون ان يتـركها لفتـرة من الوقت وقد ركّز عـينيه علي وجهه الـذي يشبه الليمـونة المعصورة وخـيل إليه ان الرجل في ايامه الاخـيره واراد أن يعتـذر بكلمات رقيـقة وان تبعـثرت بين شفتـيه فقد كـان لا يدري كيف يبدأ لأنه يحمل من الهـموم ما يثـقل كـاهل جَمَـلْ وقد لاحظ ان المـشـرف الذي قـابله عند المدخل كان ينظر إليه بعيون حاقدة وقد لوي شفته السفلي هزئا واشمئزازا ورد علي سؤاله بغلظة وعطرسة..

جلسا معا علي ذلك اللوح الخشبي الممدود وقد اتكأ الفقي علي الحائط مركزا عينيه علي مدخل الحجرة الذي انخلع بابه منذ زمن وترك مرميا قرب الحائط الخارجي . .

قال محمد انه تأخر لأن ابنه كان مريضا وكان عليه ان يهرول يوميا بين المستشفيات والعيادات الخاصة لعدة أيام دون ان يجد من يقول له شيئا عن سبب المرض، ولاحظ ان الفقي غارقا في افكاره كأنما هو يتأمل شيئا يراه أمامه فتوقف قليلا عن الكلام ثم طفق يتحدث عن مشاكل المرض والاطباء والادوية، المستشفيات الملأي بالقذارة والاجهزة المكدسة والتي يغطيها التراب وتمرح فيها الصراصير وترقص فوقها القطط وانعدام المياه، وان المريض لابد أن يأتي بالملاءات والبطاطين والاحتياجات الاخري إذا وجد سريرا في اي مستشفي ولابد له ان يدفع رشوة حتي للبواب واولئك الذين يؤدون بعض الاعمال والخدمات في النهار اما في الليل فلا أحد يؤدي أي خدمة ومن هنا فان ذوي المريض لابد ان يتناوبوا علي رعايته!! اما العيادات الخاصة فان تكاليف العلاج بها لا تطاق لأنهم يحسبون كل شيء علي أساس سعر الدولار في السوق السوداء فيقولون ان سعر الدولار مرتفع جدا وبالتالي فان كل شيء غال، ولا

يمكن لاحد ان يطمئن علي النتيجة إذا ما اجري عملية جراحية حتي لو كانت بسيطة بسبب الاهمال وتلوث المعدات وغير ذلك وما يسمعه الانسان عن ما يحدث في المستشفيات من قصص واخبار مرعب ومخيف، واضاف انه بعد عشرة أيام قضاها بين العيادات والمستشفيات كان عليه ان ينقل ابنه إلي تونس دون ان يعرف سبب المرض، وكان عليه ان يقضي الساعات الطوال منتظرا امام بوابات الحدود واجراءات التفتيش والاسئلة المستفزة المقززة وهناك ايضا لابد من الرشوة لاتمام الاجراءات. . وفي تونس اصبح الدينار الليبي لا يساوي شيئا حتي أنهم صاروا يتندرون بالقول انه مثل (الكلينيكس)، يتوقف قليلا عن الكلام وقد ضحك عندما قال، وحدة عربية والغاء الحدود. . . آه . .

لم يقل الفقي شيئا وإنما ضغط علي الباقي من اسنانه وهي قليلة ونهض متحاملا علي يديه الاثنتين في وقت واحد وكاد وجهه ان يلامس الارض ربما لأنه نسي استخدام عكازه هذه المرة، ولقد رفع يديه وقرأ ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ (الكهف - ١٠٣، ١٠٥).

وقبل أن يجلس مـرة ثانية كـان قد عقـد يديه خلف ظهره المقوس وصار يذرع الحجرة جيئة وذهابا ثم تذكر ان عثمان ذاك كان له ابنان فإذا كان هذا هو محـمد فمن يكون الثاني واين هو وماذا يعمل وعّن له ان يسأل ولكنه تردد قليلا ثم قال، لقد كان والدك رحمه الله غليظ القلب عندما ترككما في القرية وسار مع الشـيخ علي واعمـاله ثم عمـيت بصيـرته عندمـا صار مـقاولا وصاحب اعـمال ونسي تماما حـياة البسـاطة والصدق، ويكون الفقي بذلك قد هيأ مدخـلا للحديث عن ذلك الماضي . فقال مـحـمـد نـعم لقـد تركنا انا واخـي ووالدتي وذهب وراء ذلك المقاول المدعو الشيخ علي ولكن المـال كان نقمة عليه وكانت نهايتـه مع الاسف الشديد مؤلمـة وحزينة، يـكت قليلا كـأنما الكلمات قد تحـجرت في حلقه وهو ينظر بعيدا مـتفاديا نظرات الفقي المتـسائلة، ثم يسـتمر دون ان ينظر في وجه الفقي، وأري ان اخي يسيـر في نفس الطريق وقد فشلت تمامـا في الحد من طمـوحه واندفاعـه وتهوره، ولم يـستمـر الحديث بـعد ذاك إذ انتهت المقابلة وقد ودع الفقي زائره وهو يوصيه بأن لا ييأس من الإصلاح وأن لا يتـرك أخاه ينغـمس اكثر في الفـساد والإفـساد وفجـأة ودون اية مقدمـات في صباح يوم باكر سـعيد من شـهر مارس، الشهر الذي تخضر فـيه الأرض وتتفتح الازهار ويحدث

الاخصاب وتجود الطبيعة ويكون الزرع والضرع اعلن عن الافراج عن جميع المساجين وجرت احتفالات بذلك وكانت الفرحة عارمة، هناك من قال انها لاسباب واغراض ومن قال انها لمساومات وتسويات، بعض الناس تفاءلوا خيرا واستبشروا والبعض الآخر لم يكترثوا لذلك قائلين ان من يفرج فجأة يمكن ان يُسْجِنْ فجاة..

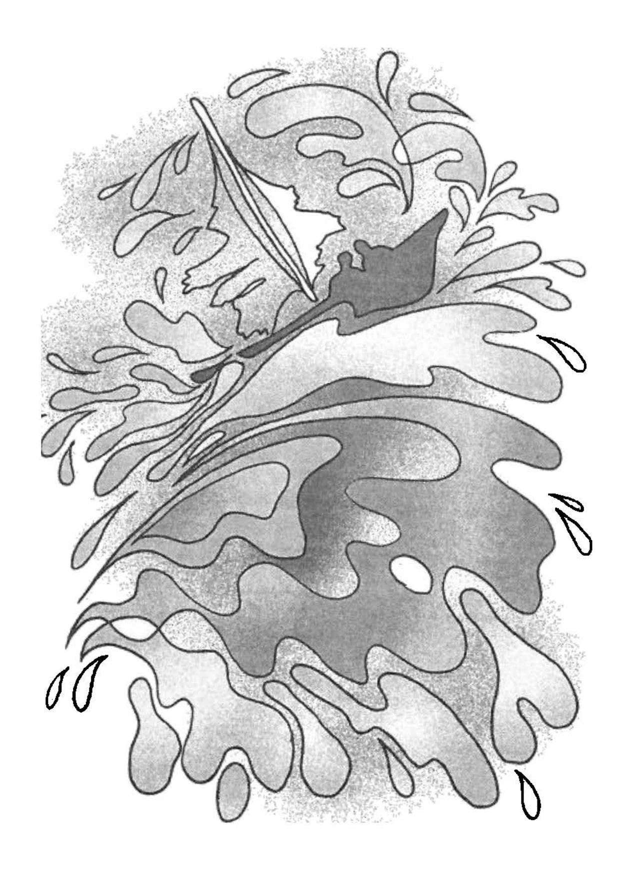
أما الفقي مصباح فقد اكد انها صحوة ضمير وبارقة امل وعمل كبير ذلك ان النفس الطيبة لا يضرها فعل الخير وتأبي الاستمرار في الخطأ، انه قرار كبير خطير مجيد يجب الاحتفال والاحتفاء به في كل وقت لأن من لا يحتفل ويفرح بالخير لا يهمه الشر ولا يحزنه الظلم، فماذا بعد؟؟

وبدأ الفقي يبشر كعادته متأملا أن ما حدث انما هو تصحيح لوضع معوج وبعده لن يكون هناك شيء صعب، هكذا يقول ويردد، صاحب الشأن لا يرضي بالخطأ رغم ما فعله المحيطون به ممن افسدوا الحياة والذين ستدور عليهم الدوائر، هؤلاء الذين لم يكن لهم دور وطني ولا قومي وهم يدّعونه كذبا الآن وقد أثروا بالخداع والسمرة والغش والرشوة..

وعندمــا جاءه مــحمــد في تلك الزيارة بادره قــائلا، كنت احس يا محمد قبل ان اراك انني وحيد في هذا البلد وانه لم يعد هناك انسان شريف واحد وكان هــذا الاحساس يحز في نفسي، ثم يصير يمطره بالاسئلة، وفي الزيارة الثالثة كان محمد مهموما ويظهر انه رغم مــا حدث في شهــر مارس مازال يحــمل هموم أخاه لأنه كان ربما يري الامور بشكل اوضح وابعد من تفاؤلات الفقي. . قــال بعد ان تنهــد كأنما صــدره قد ينفجــر بين لحظة وأخري، ان اخي في غــاية الطيش والرعونة وقــد ركبه عــفريت يسمي اللجان الثورية ولا ادري ماذا افــعل معه خصوصا انه ترك الدراسة واصــبح يسافــر كثيرا ولديه امــوال يتصــرف فيــها بلا محاسب أو رقيب وكانت والدتي رحمها الله قد حاولت ان تربيه تربية جــيدة سليمة ولكنه فلت في الفــترة الاخيرة بســبب رفاق السوء وما لديهم من اموال ينفقونها فيما لا يرضي الله وقد تزوج من امرأة اســوأ منه شراهــتها في جــمع المال لا تدانــي، ولقد اسغتــلا وضعهما لجــمع المال رشوة ووساطة وســمسرة وذلك شيء يؤرقني كثــيرا، قال هذا الكلام وقــد امتقع وجــهه ، ينظر الفقي إلي بعيد كأنمــا يتذكر اباهما ويقول في داخله ذلك الابن علي شاكلة ابيــه وقرأ ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ (القصص - ٥٥). وعند انتهاد الزيارة اعاد

الفقي كلمات النصح التي كان يكررها دائما لهذا الفتي الذي يري فيه نموذج الإنسان الطيب الصادق، نصحه ان لا يترك اخاه يغرق اكثر في هوة الضلال والفجور ذلك ان المال الحرام لا يؤدي إلا إلي طريق الشر، واضاف، لا تسرف في الحزن علي ما فات ولا تسئ لذكري والدك لأنه الآن بين يدي الله الذي يحاسب الناس علي اعمالهم وافعالهم، كان يقول ذلك حتي لكأنه قد نسي كل قسوة ونكران المرحوم عثمان، وقد خرج محمد منكّس الرأس كأنه هو الذي ارتكب تلك الاخطاء أو كأنه قد كتب عليه ان يتحمل عار ما فعل والده وعيوب وطيش شقيقه، كانت الهموم كبيرة وثقيلة علي رأس ذلك الفتي، مشاكل العائلة وشناعة افعال الاب وكيف انتهت حياته وتأنيب الضمير والاحساس بمعاناة الناس والحزن علي ما فات وما يجري وربما ما سيأتي واذا كان يمكن للإنسان ان ينسي الذي فات فكيف يمكن ان لا ينشغل بما يجري ويحدث كل يوم؟؟

كان ينظر بعينين قلقتين متفحصتين في وجه الفقي ويقول في داخله، انك سعيد اذ سوف لن تعيش بين فقر مدقع وغش فاحش، وانك لا تري هؤلاء الذين استغلوا كل شيء يعمهون في بذخهم وفجورهم..



(٦)

عندما غادر الفتي ذلك المشفي أو السجن مسرعا الخطي كأنه يهرب مبتعدا عن بؤرة مظلمة حشر فيها هؤلاء الناس ربما دونما ذنب اقترفوه كان يفكر في مصير شقيقه الذي يمكن ان يواجه بما فعل ذات يوم، وقد لاحقه الفقي بنظراته وهو لا يعلم ما اذا كان سيلتقيه مرة أخري ام لا خصوصا ان محمد صار مصدر اخبار الفقي عن العالم الخارجي، عالم الناس الذين خارج هذا المكان لأنه منذ الزيارة الأولي صار يهتم بما يجري من تطورات علي الرغم من انه في السابق كان قد فقد الامل لاعتقاده بان جميع اولئك الناس قد فسدوا وفقدوا كل شيء، وعندما ادخل هذا السجن انقطع كليا للصلاة وقراءة القرآن الكريم. .

ولم يكن في المشفي غير جهاز راديو واحد مثبت علي حائط قاعة واسعة قيل انها قاعة جلوس، ومن ينظر إلي وضع ذلك الراديو يدرك ان كل ما تقع عليه اليد يمكن ان يسرق ولذا فقد وضع في مكان مرتفع ومثبت علي الحائط وعلي محطة واحدة في نفس الوقت. . وعندما يستمع احيانا إلي الأصوات

المنبعثة من ذلك الراديو يختلط عليه الامر ذلك ان الاصوات متداخلة وان كان يفهم انها هتاف ولكنه يشبه العواء لا صدق فيه ولهذا فهو يشعر بفيض من المرارة في امعائه وكم هائل من الحزن في قلبه لأنه يعود بذاكرته إلي الايام الغابرة واهل قريته القابعة علي قمة الجبل وكيف كان اولئك الناس يسافرون بعيدا بحثا عن الموت، عن لقمة العيش التي هي الموت بذاتها. . كانوا يذهبون إلي منطقة تعرف باسم طبرق وهي مزرعة للقنابل والالغام، تلك المنطقة التي دارت فيها اعتي المعارك بين الانجليز والالمان والطليان اثناء الحرب العالمية الثانية، وقد انتهت الحرب ودارت الايام متسارعة وعاد اولئك المتحاربون إلي بلادهم بعد ان تركوا ملايين القنابل فوق الارض وتحتها ومئات الملايين من الالغام المطمورة تحت الارض تنتظر من يمر فوقها لتنفجر فيه ولكن اهل قريته كانوا يقصدونها قصدا ليفككوا دون سابق خبرة تلك القنابل والالغام وكان دافعهم الفقر وجوع الابناء والبنات. . ومن يري إلي أهل هذه القرية بعد قرابة نصف قرن من ذلك الوقت يلاحظ الايدي والارجل المبتورة ومآسي تلك الفترة علي وجوههم، في تلك المنطقة

كان هؤلاء الناس يفككون القنابل والالغام بحثا عن قطعة صغيرة في كل لغم أو قنبلة، قطعة من النحـاس يبيعونها لمتـعهد شراء خردوات الحرب العالمـية الثانية، والمتعهـدون كانوا كثارا وهم في الغالب من اليهود الذين استغلوا الفرصة اذ صارت لهم دولة في فلسطين وخـردوات الحرب في صـحراء ليـبيـا حيث دارت اعتي المعارك، هذه الخـردوات هي عبارة عن دبابات وطائرات ومدافع ثقيلة ومتوسطة، وهـم يشترون النحاس اولا ثم الحديد وقد جعلوا لهم وكلاء من أهل البلاد في كل منطقة..

كانوا ينقلون النحاس والحديد عبر اوربا إلي فلسطين، أي إلي دولتهم اسرائيل، دولتهم الجـديدة التي نبتت في ارضنا بعد ان طردوا اهل البـلاد الاصـليـين، الطائرات والدبـابات تفكك وتنقل كخردة ولهذه المهمة اناس مـتخصصون، اما اهل القرية، قرية الفـقي مصبـاح الذين لا يعرفون ولا يقـدرون علي تفكيك تلك الطائرات والدبابات فكانوا يبحثون عن القنابل والالغام فوق الارض وتحتـها ليحصلوا منهـا علي بعض النحاس متمـثلا في الحـزام الصغـير الذي يحـيط بمؤخـرة القنبلة وكـذلك اللغم، وطريقـة تفكيك تلك القنابل والالغـام بدائيـة جدا فـلا يحتـاج

الواحـد منهم لغيـر قـارض ومطرقـة يـسـمـونهمـا (قـادومـا واسكاربيللـو) ويقوم الـواحد منـهم بوضع القـارض علي ذلك الحـزام النحاسي ويـهوي عليـه بالمطرقـة ليقـطعه ومع تعـدد الضربات تـسـري الحرارة في جـسم القنبلة حيث تنفـجر احـيانا لتترك جسم ذلك المـسكين اشـلاء وسعيد الحظ ذلك الذي يفقد احدي يديه أو رجليه فقط، وإذا ما انـفجرت فيه القنبلة دون ان تقتله وكان بـعيدا عن بقية رفـاقه اكله الذئب فورا فقـد اعتادت تلك الذئاب علي أكل لحوم الآدميـين اثناء الحرب وبعدها وهي تـارع إلي مكان الانفـجار عند سـماع الصوت لأنهـا تعرف ان هناك دم ولحم، وكـان هؤلاء إذا ما قـدر لاحدهم النجـاة ينقل إلي مكان يـسـمي مـستـشفي به طبـيب واحد تعلم الجـراحة في هؤلاء الناس وهو بطبيعة الحـال مرغم علي ذلك، وهذا الطبيب عربي مـسيحي يسمي مـستر جورج، وفي العودة من البحث عن الموت كـانوا يقيـمون في منطقة تعـرف باسم (سوق العـجاج) اقيمت فيها مبان من التنك تـسمي (براريك) وهي منطقة لا تتوفر فيـها المـياه ولا اي شيء من مـتطلبات الحـياة وبـسـبب الاتربة المثـارة دائما سميت (سـوق العجاج) كانوا يرددون اغنيـة احد

شعرائهم وهي تمثل نداءات ألم مدوي ونغم حزن واسي ولكنها الحياة القاسية وعضة الفقر واحتياج الابناء، تقول الاغنية (يا عيد عيد الناس مانك عيدي. . . . احنا عيدنا بالكدر والتنكيدي) وعندما يردد الفقي مصباح كلمات هذه الاغنية تهتز شفتاه بارتعاشة وتغرق عيناه بالدموع وهو الوقور الذي كان دائما يكضم الغيض ولا يطلق الشكاة وان كان يظهر الحزن، كاد ينتحب. . . وكان يجلس القرفصاء في ظل تلك الزيتونة الهرمة منكسا راسه كأنه يتحدث إلي بقعة في الأرض أو ربما لظل الزيتونة، قال، لقد كان هؤلاء الرجال اباة وكان الايطاليون في اثناء الحرب الوطنية التي جرت علي أرض ليبيا لمدة قرابة عقدين من الزمان، كانوا يقولون عنهم انهم بدو رحل اشرار لأنهم لم يضعوا البندقية ولم يستلموا لذلك الغازي الذي جاء مدججا بالسلاح، وإذا كان الايطاليون يكرهونهم ولم يستطيعوا القضاء عليهم فإن ألغام وقنابل الانجليز والالمان وكذا الطليان كادت ان تفعل ذلك، فهي بالاضافة إلي قتل العديد منهم فقد شوهت العدد الكبير الآخر، ومن هنا يمكن القول انه قد اجتمع عليهم الظلم والفقر وقنابل الغزاة. .

مسح الفقي بيده علي لحيتـه البيضاء والتي تكاد تصل خصره وتوقف قليلا عن التفكير ملتفـتا يمني ويـسري وقد اسعده انه لم ير احدا من اولئك المتطفلين الذين كانوا عـادة يزعجونه باسئلة جوفاء مـتعجلين كل شيء، ولم يطل به الامـر علي ذلك النحو من التفكري حتي جاءه عدد من النزلاء وقد سمعوه يتحدث عن طبرق فتســاءلوا ما علاقة ذلك بما هو فيه ومــا إذا كان الفقي قد رأي ذلك البلد أو أنه يحلم في وضح النهار؟ عاود بضع كلمات مما كــان يقول فبادره احدهم ويدعي (عـلي) قائلا انه لا يصدق شيـئا مـما سـمع فكيف يحدث ان يذهب إنـسان ليبـحث عن الموت من تلقاء نفسه؟

نظر إليه الفقي نظرة متفحصة بتلكم العينين الغائرتين وقال.. ان عضة الجوع حادة وبكاء الصغار لا يطاق ولقد كانت الارض جدباء والسماء ابوابها مـغلقة ولم تكن هناك حرفة لهؤلاء الناس غير الزرع ورعي الحيوانات، ولا زرع أو حصاد بلا مطر، فقال آخر، كيف كانوا يذهبون إلي ذلك البلد ومتي كان ذلك؟

فرد الفـقي بينما كــان يركز نظراتـه الحادة علي وجه الســائل قائلا، ان ذلك كان في فترة ما قبل الاسـتقلال وكان سعيد الحظ

يجد عملا مع الانجليز مقابل اربعة عشرة قرشا في اليوم وكانت العملة مصرية في ذلك الوقت وهؤلاء الذين ذهبوا إلي طبرق لم يجدوا عـملا في اي مكان رغم الاجـر الزهيد الذي كـان يدفع للعـامل، وهكذا كان الواحـد منهم يبحث عن القنابـل والالغام ليـحصـل علي بعض القطع من النحـاس الذي يبـيـعه وقـد لا يحصل فـي اليوم الكامل علي مـا يزيد ثمنه علي عشـرة قروش هذا إذا لم تنفجر القنبلة بين رجليه وهو يضربها لكي ينزع حزام النحاس الصغـير الذي يحيط قاعـدتها، وهناك من قطعت رجله ومع ذلك استمر يبـحث عن الالغام والقنابل، ويذكر ان احدهم كان قد توفر له مبلغ ثمانية وتسـعون جنيها فقال لرفاقه ذات يوم انه سوف يستمر في البـحث عن القنابل والالغام إلي ان يستوفي مبلغ مـائة جنيه، أي الجنيـهان الباقـيان علي استكمـال المائة، وعندها يعود إلي قريته ليتـزوج ابنة عمه التي تنتظره هناك وبينما كان ينزع حزام النحاس وهو يدق بمطرقه علي عنق القنـبلة حدث ان سرت الحرارة فيـها فانفجرت لتقطعـه اشلاء ولقد توفي علي الفور دون ان يستوفي مبلغ المائة جنيه ويتزوج ابنة عمه!!!..

يتوقف الفقي مصبـاح عن الحديث بينما تبادل الجمع نظرات

متسائلة كـأنهم يشكون فيما يقول وقد ألفوه يتحـدث كثيرا وفي امور غـامضـة، لكنه لا يهـتم بتلك النظرات وهو يتحـدث عن الماضي وكأنه يري المستقبل مرسوما امامه ويدرك ان هذه الايام التي تمر متثاقلة وهو يقضيـها في مشفي المجانين لن تجعل منه مجنونا وليس مهما ان يـفهمه هؤلاء الناس أم لا وان كان يدرك ان ما يقوله الآن لابد ان يدور في رؤوسهم وربما عـرفوا معانيه ولو بعد وقت قد يطول لأنه يأمل في المســتقبل رغم تكدّر ايامه الحالية، وقد ظهرت علي محياه ابتسامة باهتة متكلفة وهو يراهم ينصرفـون ولابد انهم يحملون مشـاعر مخـتلفة، منهم من يراه مجنونا يتحدث عن ماض بعيـد بكلام يشبه الخرافات ومنهم من يعتقد انه حكيم يتـأمل ما يجري في بلاده ويحدّث اهله، ومنهم من يقلّب الكلام علي كل جانب حيث يقـارن الاشياء والاحوال دون ان يصل إلي قرار بسبب غشاوة علي عينيه اما اولئك الذين يرفلون في نعيم السرقة، إذا امكن ان يســمي نعيما، فلم يعودوا يأبهون لما يقول من كلام لأنهم يسمعون ولا يفهمون ولو فهموا لأدركـوا أن المال الحـرام مـآله الزوال وانهم يســرقون نصـيب الآخرين، اولئك الذين لم ينافـقوا او يتملقـوا من اجل الوصول

إلي هذه الوظيـفة أو تلك، يتـجهم وجـهه كـأنما طرقت اذنـيه موسيقي جنائزية وقد انكمش كما لو كان صرة نخالة وظل ينظر في اتجاه آخر وعلي نقطة محددة كأنه يترقب شيئا ما لا يعرفه، ومع ذلك فقـد كان مفـعما بالامل وكـانت يداه ترتعشـان وقلبه يخفق بشـدة ولم يفطن إلا وقد لفه الظـلام وتذكر انه لم يتناول أي أكل ولا دعاه احـد للأكل في وقته ربما لأنهم اعـتادوا علي تغيـبه أو أنهم يتـعمـدون اهماله.. لا يهم، حـاول ان يصطنع ابتسامة اذ لابد ان المرء يمكنـه ان يبتـسم او حتي يضحك وسط هذا الكم الهائل من الهموم..

ذهب محمد يبحـث عن اخاه وعندما علم بمكانه قرر زيارته في طرابلس وما كان يتوقع ان يراه فيمـا هو فيه، البيت المهيب والاثاث الفخم والمـلابس الفاخرة والاجـهزة والسـيارات، وقد ادخله عند حضـوره إلي صالون واسع مليء بالاثاث والاجـهزة والسجاد الفاخر، وبعد فترة جاءتهما امرأة قدمها شقيقه علي انها زوجتـه ولم يكن مـحمـد قد علم ان اخـاه تزوج، ومنذ النظرة الأولي لاحظ محمد انها متهوره طائشة متفاخرة متبجحة وكانت ترتدي ملابس يراها فاضحة وقـد تحاشي النظر إليها منذ دخلت

وإن كانت هي ايضا لم تهتم به وكأنه غير موجود اكثر من انها مدت يدا باردة عندما قدمها زوجها إليه، وقد باشرت تتحدث إلي زوجها في مختلف الامور، اللجان والاجتماعات واجراءات التصفية والسفر والجوازات، وبعد كلام متواصل لم يقاطعها زوجها فيه ولا مرة واحدة او استفهم عن اي شيء كأنما هي كانت تصدر اوامر، وقد خرجت مسرعة بعد ان نظرت إلي ساعة في معصم يدها، وعند الباب التفتت اليه وقالت انها علي موعد مع اعضاء اللجنة الثورية. . انتظر محمد بعض الوقت حيث تركه اخاه الذي كان يتبع زوجته وهي خارجة، وعندما رجع ولم يكن قد سأل حتي عن احوال اخيه او احوال اولئك الناس في القرية التي تربي فيها والتي ولد علي ارضها قبل ان يأتي إلي المدينة ويصل إلي ما هو فيه الآن. .

سأله محمد عن كلام زوجته ومن اين هي وما معني التصفيات ولماذا السفر؟

ولم يكن محمدا هذا يعرف ان القتل يسمي تصفية وان هؤلاء الذين يقتلون يحصلون علي مكافاءات مقابل ذلك العمل الذي يراه بشعا ممقوتا حرمه الله سبحانه وتعالي، رد اخاه بكلام غير

واضح فيما يتعلق بزوجتـه ووضعه إلا أنه استرسل في الحديث عن التصـفيات والاجراءات التي تتـخذ ضد العناصر المـعارضة التي يسمـونها (الكلاب الضالة) ردد كلمة الكلاب الضـالة عدة مرات، فهم محمد انه ايضا يشارك في تلك التصفيات. . سأله، اولا اتمني ان اعرف ماذا تعمل انت الآن وما علاقتك بهذا الذي تتحدث عنه، القتل أو التصفيات كما تسميها؟؟

ضحك هذا وهو ينظر إلي السقف ثم يدور بعـينيه إلي اليمين واليـسار وقـال أنا أعـمل!! أنا آمـر فـقط ومهـمـتي التـوجيـه والمراقبة. .

قال محمد وكيف توجه وماذا تراقب وفي أي شيء؟؟

قـال في كل شيء، ألا تعـرف ان الثـورة تشـمل كل شيء؟ الصحة التعليم الاقتصاد السـياسة الداخلي والخارجية و. . . هنا قاطعه محـمد، هل هناك سياسة مفهـومة؟ وكيف لمن لا يفهم في الاقتصاد ان يوجه الاقتـصاد؟ ومن لا يعرف التعليم ان يسيّر التـعليم؟؟ فنفخ وزفر وقـال، اوه قلنا الثـورة، والثورة مـعناها التغيير في كل شيء، هدم كل القديم. .

قال محمد ، القديم حتي لو كان صالحا؟!

فرد، ليس هناك شيء صالح ولو كـان هناك صلاح ما قامت الثورة،

فرد محمد قائلا، يا اخي ان النبي ﷺ وهو نبي يوحي إليه من عند الخالـق ابقي علي بعض الأشياء، علـي بعض العادات والتقاليـد الصالحة والطيبة، ثم ان القـتل او ما تسميه تصـفيات هل هو من الثورة في شيء؟

قـفز هذا واقـفا وقـال ها انت، لا تعرف ان هناك من تآمـر علينا، علي الثورة وهناك عمـلاء وخونة وهؤلاء لابد من قتلهم وسحـقهم، وقد لوّح بيـده في الهواء.. استـغرب محـمد هذا الكلام، تآمروا علينا!! أي ان اخاه اصـبح جزءا من الثورة حتي يقـول (علينـا) وهو لم يكن في أي يوم من الأيـام يحس حـتي بالوطن وليس الأمة!! سـبحانـه مغيـر الاحوال! هل كل الناس هكذا؟ هؤلاء الذين يتـبـجحـون بالكلام بمناسـبـة وبغيـرها؟؟ وتساءل محـمد، أليـسوا مـواطنين ومن حقهم الاعـتراض ثم ما قيمة الشعار المرفوع والذي يقول (أمرهم شوري بينهم؟؟) وآخر يقول، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين..؟ ما معني هذا الكلام؟

معني هذا ان الناس تتناقش في أمورها، ومعناه ان الحق فوق كل شيء ورأي الجماعة لابد أن يؤخذ به ولابد ان يسود..

فقال اخاه، انت تتحدث عن مثـاليات أو غيبيات لا مكان لها في الواقع ونحن نتعامل مع هذا الواقع، والشعـوب المتخلفة لا تمشي إلا بالسـوط واحيانا يحتاج المـرء إلي أن يجر الناس إلي الجنة بالسـلاسل ونحن امـام دول كبـري تتآمـر علينا ولابد أن نحمي أنفسنا بالقوة، فهز محمد رأسه وقال في داخله، يتحدث كأنـه هو الذي قام بالثـورة وانه مصلح زمـانه وهو لا يفقـه من الامـر شيـئـا، ثم ان حـتي المصلـحين لا يلجـأون إلي القـوة والبطش، ثم أضـاف، أنت كـأنك تتـحدث إلى شـخص آخـر لايعرفك، وسكت قليـلا، وهنا سأله أخاه قـائلا، ماذا تريد أن تقول وما الذى تود أن تصل إليه؟

فقال، ماذا أقـول إذا كان كلامى غيبيـات وأنت الذى تقرر ما هو الواقع وما هى الحقيقة ثـم ما هى الثورة وكأنك تتحدث مع شخص غـريب لا يعرف مـاضيك!! أنا أخـاك ابن أمك وأبيك وأعرفك جيدا..

لوح بيده وقال انت مازلت ترانى طفـلا وبعقلية أولئك الذين يعيشون فى الماضى، أولئك القرويون الفلاحون الجهلة، الزمن

تغير يا محمد وأنتم لم تتغيروا!! نظر إليه محمد مليا وقال، أنت مغرور ومتغطرس لأن من ينكر أهله وماضيه ويحتقر الذين عاش معهم وبينهم لايمكن إلا أن يكون كذلك، وهنا تدخلت الزوجة وهى تنظر بنوع من الاحتقار إلى هذا المحمد وكانت قد عادت لتوها من خارج البيت وعند دخولها لم تحييهما أبدا وإنما تدخلت فى الكلام مباشرة وهى فى مواجهة محمد قائلة، لا نعلم بمنجزاتها فذلك ليس عيب فينا وإنما فيكم أنتم الذين لا يعجبكم العجب، أنتم تفكرون فقط فى مصالحكم بينما الثورة تقوم بأعمال تاريخية كبيرة فى كل مكان من العالم، تتوقف قليلا ولم يكن زوجها ينظر فى وجهها وإنما كان منكّس الرأس كطفل يقرعّه أباه أو أمه..

أجاب محمد قائلا، أولا أنا لم آتى لأتحدث إلى امرأة وأنا لا أزايد على أحد وأعرف كل الحقائق، وإن كنت قد جئت فانما أريد لأخى أن يستيقض قبل فوات الأوان لأن ما تقومون به ليس من الثورة فى شيء، الثورة عمل وبناء وصدق وطهارة ونكران للذات وابتعاد عن الانتفاع واللصوصية والسرقة وهذه خصالكم أنتم الذين تتشدقون بالثورة والثورية، منافع وسرقات ورشاوى واعتداء على الناس وأموالهم، إننى أخاف على أخى ولا أريده أن يستمر فى طريق الضلال..

أجابت بصوت عال ونرفزة، أوه، وفر عليك الكلام والمواعظ التى لا تسمن ولا تغنى من جوع.. يحدث هذا الحوار وشقيقه لم يتفوه ببنت شفة، ولهذا خرج محمد وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم ويخبط يدا بيد، مرددا، أننى لأعجب لهذا الأمر.. كيف ينقلب المرء إلى مثل هذا الشكل العجيب الغريب!! لا رحمة ولا شفقة، لا خوف من الله ولا حتى بعض الخجل من الناس حيث يبلغ التبجح حده غير المعقول.. لايهمه المستقبل ولا حساب الخالق ولا أحمّر وجهه عندما يكذب أو يوخزه ضميره عندما يقتل، !! كان يتحدث عن القتل وقد أسماه تصفيات كأنما هو يتحدث عن ذبح دجاجة، وعن الأموال التى يحصل عليها كأنها حق من حقوقه فيقول فلان لديه كذا مليون فى فرنسا وعلان لديه كذا مليون فى سويسرا إلخ وكان ينظر إلى امرأته وهو يتحدث بينما يذكر الأرقام تلك فيراه اتبتسم وتومئ برأسها علامة التأكيد، ولم يقل كم لديه هو من المال خارج البلاد ولكن الأثاث الفاخر والفيلا الكبيرة والمعدات التى يستخدمها والأجهزة الكهربائية المتنوعة والسيارات الجديدة والذهب والساعات كلها توحى بالثراء الفاحش الذى هبط عليه فجأة..

قال محمد، إن المال الحرام لا يدوم ولا يثمر ولا يفيد

وسوف يظهر علقما أو دمّلا أو سرطنا على آكله، أما الأموال التى تتحدث عنها فهى حقوق الناس، هى أموال الفقراء فى هذا البلد الذين كانوا يجب أن يستفيدوا منها فى شكل خدمات وغير ذلك..

فرد هذا بتعجب واشمئزاز.. أهذا الذى جئت من أجله؟ وأضاف..

تريد أن تقول هذا الكلام الفارغ وأنت لا تستطيع حتى توفير ثمن الدواء وعلاج ابنك؟ ألم تعجز حتى عن علاجه فى تونس؟ ألست قاصراحتى عن شراء الأدوية والغذاء اللازم؟ ألم تقل انك أحيانا تعجز عن ثمن كيلو اللحم كل أسبوع لأسرتك؟ ألم تر أنك (دخت) بين المستشفيات هنا ولم تجد علاجا لابنك؟؟ فلماذا تلومنى إذا ضمنت حياتى ومستقبلى كغيرى؟ ألاترى ما يحدث ويدور حولنا هذه الأيام؟؟

نظر إليه محمد باستغراب وقال، إنى والله لن أشرب حتى الماء فى بيتك لأنه حرام انت تتحدث عن العلاج فى تونس وأنا أسألك لماذا فى تونس ألم يكن من الممكن ونحن أغنلى من تونس مئات المرات أن نوفر العلاج والمستشفيات الممتازة والأطباء الأكفاء هنا فى بلادنا لولا سرقاتكم وانحرافكم واستغلالكم وكذبكم، نعم لقد (دخت) بين المستشفيات

محاولا علاج ابنى ولكنها مستشفيات خربه لا تتوفر فيها الأدوية ولا العلاج، والسبب فى ذلك هم أمثالك، اللصوص والمستغلين والمنافقين والمخربين، كيف تكون تونس أفضل فى كل شئ وكيف تكون الأردن أحسن من ليبيا عشرات المرات فى العلاج والصحة وغير ذلك؟؟ ألا ترى أن ذلك عار ما بعده عار، إن أمثالك من اللصوص لا يصلحون بلدا وهل تسند النواية زيرا؟؟ انكم والله سبب كل تخلف وخراب فى حين أن قائد الثورة يوجه وينبه وينهى عن السرقة والاستغلال والفساد، وخرج مسرعا دون أن يودع أحدا ولا أهتم أخيه بخروجه وقالت زوجته وهى تشيعه بنظرة حاقدة. . أحسن ما فعل،هؤلاء الناس ليس لديهم إلا المواعظ. .

وإذ خرج محمد متجها إلى قريته وقد استقل سيارة أجرة بها عدد من الركاب وكانوا يتحدثون فى مختلف الأمور كعادة كل الليبيين ولأن الطريق طويل ولابد أن يتبادل الركاب بعض الأحاديث خصوصا إذا كانوا أهل ومعارف أما إذا لم يكونوا كذلك فإن كل واحد يأخذ جانب الحذر خوفا من نقل الأخبار وعملا بالمثل القائل (الحيطان لها آذان) وهذا بالتأكيد لا يعنى الحيطان بالتأكيد وحقيقة الأمر وإنما أن المخبرين فى كل مكان. . ومن يتفوه بأى نقد لا يرى النور بعد ذاك. .

قال أحدهم، إن الأسعار ترتفع كل يوم بل كل ساعة والرواتب ضئيلة، ضحك الثانى وقال، أين هى الرواتب؟ فنحن منذ ستة شهور لم نحصل على قرش واحد والغريب إنهم فى التليفزيون يعلنون كل ليلة عن الكمية المباعة والمصدرة من النفط وعن سعره بالدولار ويقال إن الدخل لايقل عن مائة مليون دولار فى اليوم الواحد، وكأنهم بذلك يستفزون الناس فهم من جانب لايدفعون المرتبات ومن جانب آخر لا يعلنون عن الدخل الكبير من النفط فقال ثانى وهو ينفث دخان سيجارته الرديئة وينظر خارج السيارة..

ها لقد قالوا الثروة والسلاح والسلطة بيد الشعب.. يرمى عقب السيجارة من نافذة الزجاج المكسور فى السيارة والذى كان السائق قد ركب مكانه قطعة خشب لكن تلك القطعة لم تقاوم الريح فوقعت ولم يهتم بعدئذ بها رغم أنها تزعج الركاب إذ ينبعث منها الريح القوى وهو يرد دائما على أى شكوى قائلا، هاتو لى زجاج بأى ثمن، ليس هناك قطع غيار أبدا فماذا أعمل؟ قالوا لى يمكن أن تجد زجاج فى رابش السيارات القديمة فبحثت لدى كل من يبيع تلك الخردوات ولم أجد رجاجا..

قال ثالث..

إن الغرب والضغوط السياسية والاقتصادية هى السبب فى كل الذى يحدث. . وهنا هب في وجهه الجميع بغضب وفى وقت واحد رافضين هذا القول متسائلين. .

من الذى يربح فى السوق السوداء؟

ومن الذى يحتكر استيراد كل البضائع؟

ومن الذى يهربها ويبيعها فى السوق السوداء؟

لماذا هبط سعر الدينار الليبى فى تونس وفى مصر وغيرهما؟

وأين تذهب أموال الشعب الليبى؟

ثم قال آخر. .

يا جماعة اتقوا الله فالسياسة بحرها عميق، وهمس فى أذن صاحبه، هل تعرف السائق؟

ربما يكون من المخابرات أو ربما يكون متعاونا معهم؟

فقال هذا، لا أعرفه ولا أعتقد أنه منهم لأن سيارته قديمة وهم يحصلون على سيارات جديدة ومن مختلف الأنواع. . وأضاف آخر. . الغريب أننا فى بلادنا ولا نعرف ماذا يحدث ولماذا يصدرون قرارات ضد مصالح الناس وكيف يقبل العقل أن الليبى الآن عاطل عن العمل وربما يمد يده يطلب أو يسرق، تصوروا أن ابنى قد تخرج من الجامعة منذ سنتين وهو لا يعمل

ولم يجد أى فرصة عمل حتى الآن ولقد صرفت كل ما أملك من أجل تعليمه على أمل أن يساعدنى عندما يتخرج!! والغريب أن هناك تعليمات بعدم تشغيل الخريجين الليبيين إلا بعد مرور ثلاث سنوات على تاريخ التخرج فى حين أن كل من هب ودب يعمل ويعيش فى هذه البلاد، وهناك من يعملون فى بيع الخضراوات من الخريجين الليبين لكى لا يمدوا أيديهم أو ينحرفوا، ناهيك عن أولئك الذين لم يعودوا إلى البلاد على الاطلاق لأنهم يعلمون أن العمل ممنوع عليهم فى بلادهم،يهز رأسه، شئ لا يفهم، حسبنا الله ونعم الوكيل، عندما كانت بلادنا فقيرة كنا نقبل بالعيش الكفاف أما الآن فإننالا نفهم لماذا لا نتمتع بما وهبنا الله من نعمة، كيف يمكن نقنع أبناءنا بأن يجتهدوا أو يدرسوا إذا كان الخريج لايجد عملا؟ لماذا يدرس ولماذا يتعب؟ وحتى الدراسة لم تعد مجانية ولا العلاج كذلك وحتى من يريد زيارة مريض لابد أن يدفع ثمن الدخول!!

أما المريض الذى يدخل المستشفى فلابد له من أن يأتى بكل شئ من بيته!! آه.. الله غالب..

ولم تزد رحلة هاتين الساعتين محمد إلا حسرة وألما، فاذا كان أغلب الناس متضررون فكيف يوافقون على الاجراءات إذا كانت ضد مصالحهم وهم يقولون إنهم أصحاب السلطة؟ وهل

لديهم سلطة فى الحقيقة والواقع؟؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا يرقصون ويصفقون؟؟ ثم إن قيادتهم لماذا لم تفطن لما يجرى؟ ولماذا لا تحس بآلامهم ومواجعهم؟

وهنا تذكر أخاه وكيف أنه مستفيد من آلام الناس ومعاناتهم،لكن هل يمكن أن يكون كل هؤلاء الذين يصفقون مستفيدين؟ هل صحيح أن كل واحد يحصل على نصيبه كما يقولون؟

ظل يفكر فى هذا الأمر أثناء فترة مشيه من المحطة إلى داره ولكنه عندما وصل وجد شاغلا أكبر إذ كانت زوجته غارقة فى دموعها وهى تندب حظها العاثر..

قال خيرا،ماذا يبكيك؟

نظرت إليه من خلال دموعها وهى فى غاية الاضطراب وقالت أين كنت؟ خرجت العبارة من حلقها مخنوقة محشرجة..

نظر باستغراب وقال..

ومنذ متى أقدم إليك تقريرا أو أسألك الأذن؟ وكان قد لوح بيده دليلا على الغضب، قالت لم أسألك من قبل ولكنك، وجمدت الكلمات بين شفتيها إذ غلبتها دموعها وإن قد أشارت

بيـدها المرتعـشـة إلى حيث يرقـد الطفل دون حـراك مغـمض العينين، تقـدم من الطفل ووضع يده اليمنى على جـبينه وإذا به حار كـالجمـر، أحس بالشقـاء والبؤس وقد أظلمت الـدنيا في وجهه وطافت في ذهنه أشياء كثـيرة، هل سيموت طفله ولماذا؟ هل هو عقـاب من الله ولم؟ كيف يكون أولئك الفجرة أصـحاء وابنه مريض؟ ربما هو امتحان من الله عز وجل؟

تمالك نفسـه وبدأ يقرأ..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٤)

وكانت زوجته تولول باكية نائحة إذ كان مازال يقرأ ولم ينحّي يده من على رأس الطفل حتى أحس بأن حرارته قـد انخفضت، فحمد الله وصار يهدئ من روع زوجته ولم يكن بجوارهما أحد وقتذاك غير طفلتهما الصغيرة التي لم تكن تعرف ماذا يجري وإن كان تنقل نظراتها بيـنهما وهي تضغط على دميـتها التي صنعت

من قماش. . وكـانت الدار عبارة عن حجرة واحـدة أقيمت من الحجر الأبيض وساحـة محاطة بـسور غير مـرتفع مقام أيضا من الحجـارة البيـضـاء وباب حـديدى خارجى مطلى بالغـراء البنى وبعض الأثاث القديم، والدار مزودة بـالكهرباء والماء، فى هذه الأثناء سمع الأذان وكان ذلك اليوم يوم جمـعة وقد تهيأ للصلاة فى مسجد القرية القديم الذى اعـتاد أن يؤدى فيه الصلاة،كانت زوجته تلّح على نقل الطفـل إلى المـتوصف الصغيـر الموجود فى القرية، وبعد تفـرّس فى وجهها لعـدة ثوان طمأنها على أن الطفل بخير حامدا الله على رحمته، فدمدمت قائلة، إن شاء الله دون أن تنظر فى وجـهـه كـأنمـا هى لا تريد أن يرى عـينيـهـا المحمرّتين من أثر البكاء، وكان يرى فيـها امرأة صـالحة صبورة على مشـاكل الحياة غيـر شكّاية ولا ملحاحة أو حـسودة،وهذا أيضا من نعم الله. .

ويلتقى الـناس عادة فى المناسبـات مثل الأعـراس أو المآتم والصلوات وخصـوصا صلاة الجـمعة وهـم يكونون أكثر طيـبة ويتلفعـون بمظاهر التقوى عند اللقاء فى المـقابر ومظاهر الورع فى المـساجد ولكنهم يظهرون على حقـيقتهم بعـد دفن الموتى وترك المقبـرة مباشرة، وربمـا هذا هو حال الناس فى كل مكان على أن أهل القرى أفضل حالا من أهل المـدن، وفى المـساجد

فإن أغلبهم لا يصبـرون دقيقة واحدة بعد اتمـام ركعات الصلاة وإنما ينفلتون مـسرعين فى عجلة من أمـرهم ولا يبقى عادة إلا كبـار السن من أجل التـسبـيح وأداء الفاتحـة والدعاء.. ولقـد انتشـرت عادة اللحى بين الشباب وصـاروا يؤدون الصلاة بطرق مـختلفـة كأنمـا هم يريدون الخـروج على المـعتـاد ومنهم من يستنكرون حـتى بسـط اليدين والتـسبيـح والدعاء ولابد أن تلك واحدة من مظاهر الرفض التى تجتاح الشباب هذه الأيام ولهؤلاء عذرهم لأنهم عاطلون عن العمل مصاردون بالاجراءات الرسمية فاقدو الأمل فى الاستـقرار بسبب التناقض والخلل الذى يحدث فى حياة الناس ولذلك أسبـاب كثيرة منها تغير السـياسات ومنها الفوارق الاجتماعية وأمـور أخرى ومن المعروف أن الشعوب أو الجماعات تصاب هى الأخـرى بمرض الأعصاب وليس الأفراد فقط..

التقى محـمد أحد أقاربه بعـد صلاة الجمعة فى المـسجد وقد اصطحـبه لتناول الغـذاء ولم يكن قد تم لقـاءهما منذ زمن بعيد ولهـذا فإن كلاهما صـار يسأل صاحبه عـن أحواله، كيف يعيش وأيـن و ماذا يعمل وكم لـديه من الأطفال وكيـف كانت صحته إلخ؟؟

فقال محمد أنه قد انصرف تماما عن كل شئ إلا الزراعة وتربية الأغنام والحياة البسيطة فى هذه المنطقة البعيدة عن المدن والصخب وأن لديه ابن وأبنة وأن كان الابن عليلا منذ مدة، أما الضيف فقد ذكر أنه تقاعد باختياره من العمل الحكومى منذ سنوات لأنه لم يعد قادرا على العمل حسب الترتيب الجديد، ومتنهدا قال، لكل دولة رجالها، وأضاف ، لقد اكتفيت بأن اجلس كل يوم أمام الباب أحدّق فى المارة وأتصور رغبات الناس ومشاربهم بل واعد خطوات كل منهم وحركات أيديهم وأشكال ملابسهم وهكذا دواليك، وقال أن له ثلاثة أبناء وبنتان، الأبناء واحد منهم وفقّ فى دراسته أما الآخران فقد جندا فى الجيش وجرح أحدهما فى حرب الجنوب وكان جرحه بالغا حتي أنه أصبح شبه عاجز والثانى لا عمل له الآن، والبنتان تزوجتا والحمد لله، كان يتلفع جردا ابيضاً ويقبض على مسبحة صغيرة فى يده اليمنى، أضاف بعد توقف قليل عن الكلام بينما كانا فى طريقهما سيرا على الأقدام الحياة أصبحت لا تطاق يا أخى كل شئ تغير والأسعار مرتفعة وكل شئ فى السوق السوداء ولا أعرف من أين وفدت علينا هذه العادات وهذا التكالب، والبلاد تعج بكل الأجناس وقد ضافت الحياة على أهل البلاد

وتجـد الآن من الليبـين من يقـسم لك باغلظ الإيمـان أنه يكاد يجوع، تصور أن فلان، وكنت قد التـقيه منذ أسبوع قال لى أنه صرف كل مـا يملك من أجل علاج زوجـته فى تونس ولكـنها الآن طريحة الفراش وأنه لا يملك سيارة وجـهاز الهاتف فى بيته كان قـد قطع لأنه لم يتمكن مـن دفع الفاتورة وربمـا تعرف أنه كان يشغل منصبا كبيرا وحـساسا وكل جريمته أنه نظيف اليد لم يستغل أو يرتشى !!

فقاطعه محمد قائلا ، أنها والله لـسلعة نادرة أن ترى إنسـانا بمثل هذه الأخلاق والـسلوكـيات ولكن ما الفائدة؟ النتيـجة فقر ومـذلة وبؤس!! أمـا المرتزقـة والمـرتشـون فـإنهم يرفلون فى النعيـم، يستخـدمون أفـخر السيـارات ويعيـشون فى القـصور ويقضون اجازتهم فى أوربا تأتيهم الخدمات من كل صوب ولهم أرصدة فى الخارج كما أنهم يعـالجون ابناءهـم أيضا فى الخارج إذا أصيبـو حتى بالزكام وفى أحـسن المصـحات والمستشـفيات الأوربيـة، ولكنه نعـيم زائل ومال حـرام لابد أن الله سـبحـانه وتعالى سيحاسـهم عليه لأنهم يأكلون أموال الناس الذين يعانون

وتضورون من الجوع والحرمان ويتألمون من المرض . . آه، لا يبقى إلا الصيت الطيب يا أخي.

وكانا قد وصلا الدار وقد جلسا في الساحة قرب الحجرة مفترشين حصيرا. . وبعد أن تناولا الطعام وشربا الشاي وكان محمد قد اطمأن إذ كان ابنه قد تحسن حاله، سأل الضيف عن شقيقه وكيف حاله؟؟

رد محمد بكلام مشوش متباعد قائلا، أنه لا يراه كثيرا ويعرف أنه لا يعمل وإنما هو عضو في لجنة ثورية أو شئ من هذا القبيل وأنه يعيش في بيت كبير في العاصمة ومتزوج امرأة من هناك وهي تعمل في نفس المجال، إذا صح أن يسمى عملا، كان لا ينظر في وجه ضيفه مباشرة ربما أنه لم يرد له أن يكتشف عدم رضاه عن وضع أخيه، ولكن الضيف كان يعرف الشئ الكثير، ودون أن يحرج مضيفه قال، يا محمد أن الميزة الطيبة في بلادنا أننا شعب مترابط وكذلك نحن شعب صغير لا يخفى فيه شئ وربما هذا يمثل بعض الضمانات لأن حتى أولئك الذين انحرفوا يعرفون أن الناس تهزأ بهم وحتى بعض ضعاف النفوس يمنعهم ذلك من الانجرار وراء المكاسب والأخطاء. .

فقال محمد ولكن ما الفائدة ها أنت ترى أن السيل قد بلغ الزبى كما يقال . . أن الفساد قد استشرى فى البلاد (رشوة وسمسرة وسرقات) أما عن أخى فإننى اعتبره أحمقا ومغرورا ومنافقا وزوجته محتالة وفاسدة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال الضيف .

المصيبة أن أمراض الشرق قد انتقلت إلينا، أشخاص وأحزاب وتنظيمات، أشرار ومرتزقة وصار لكل مأخورة فى الخارج مثيلتها فى ليبيا وقد عرف الليبيون الرشوة والسمسرة والتهريب والأرصدة فى الخارج من خلال هؤلاء، انظر مثلا أغلب كبار الضباط فى الجيش الذين يعيشون فى قصور فخمة مليئة بالمعدات والأجهزة والأثاث الفاخر المستورد من الخارج ، لو حسبت مرتب أى من هؤلاء منذ ولد حتى الآن لما كان إجمالى كل المرتب يغطى تكلفة بناء البيت فقط هذا إذا اعتبرنا أن راتب الواحد الآن كان يمنح له منذ ولد، ناهيك عن المزارع والأرصدة فى الخارج التى تكونت من العملات والأموال المهربة ضف إليها ما يصرف فى مختلف أنواع الترف والفجور فى كل رحلاتهم وسفرياتهم إلى كل مكان فى العالم. .

قطب محمد جبينه بعد أن توقف عن الكلام ثم تساءل قائلا، ترى هل يعلم أولى الأمر بذلك؟ وتابع كلامه لا يمكن أن نتصور أنهم لا يعلمون . . وأين قانون من أين لك هذا أو قل ما هو عمل لجان التطهير؟ ولكن من يطّهر من يا ترى إذا كانت لجان التطهير تتكون من نوعية هؤلاء ؟؟

وقال الضيف . .

يخيل إلى أن الرشوة أصبحت القاعدة وليس الاستثناء حتى أنك لا تستطيع قضاء أبسط الأمور دون أن تدفع ومن لا يعمل على هذا الأساس يعتبر شاذا أو أهبلا كما يقولون . . وهنا تذكر محمد وضع الفقى مصباح فطفق يسرد القصة . .

كيف أنه نُبذ وحورب ثم وضع فى مستشفى المجانين باعتباره فاقد العقل لمجرد أنه كان يعلن رأيه ويلعن الرشوة والمرتشين وربما سيموت فى ذلك المستشفى أو السجن القذر.

وكما هى العادة فقد كانت زوجته وطفليها يقبعون فى ركن من الحجرة حتى غادر الضيف وقد ودعه محمد إلى محطة سيارات الأجرة فى القرية وود لو أمكنه أن يدفع أجرة السيارة لكنه لم يجد مبلغا معه وهكذا اكتفى بكلمة توديع رقيقة وشد

بحرارة علـى يده . . عندما رجع محـمد إلى داره كـان مكتئـبا ومزاجـه متعكر إلا أن زوجـته وانتعـاش ابنه اضفيـا عليه بعض الانشـراح وانسيـاه كلام الكدر وهمـوم البـلاد فقـال فى نفـسه (للكعبة رب يحـميها) وأن كانت هناك رغبات كـثيرة تزدحم فى رأسه أولاها نقل ابنه لإجراء تحليل دم كما قيل له وربما تصوير أشعـة للتأكـد وذلك يحتاج مـبلغا من المـال لا يعرف مـقداره بالضبط، وثانيها زيارة الفقى مصباح فى المـستشفى ، مـستشفى المجانين، إذ كـان فى آخر زيارة ر آه فيها شاحب الوجـه معتل الصحة بشكل يبعث على القلق، وثالثها زيارة شقيقه فى محاولة أخيرة لنصـحه ومحاولة اعادته إلى جـادة الصواب، (إنما الدين النصيـحة) وأن كان يود أن لا يلتـقيه فـى بيته كـيلا تكون تلك المرأة الشرسة حاضرة، ولكن أين يمكن أن يجده وهو لا يعرف له مكان مـحدد، هـذا إذا لم يكن قد سـافـر فى مهـمـة كمـا يقولون. .

استـيقظ مبكرا اليـرم الثانى، أى يوم السـبت ولم يكن قد غادر داره يوم الجمعة بعد أن ودع ضيفه فى المحطة، وبعد أداء صلاة الصبح جلس متكئا على الحائط أمام الحجرة متفكرا فيما

يمكن أن يحدث إذا لـم ينقل ابنه للفحص وإجراء الـتحليل هذا اليوم وهو لا يمـلك مالا لهذا الغـرض؟ ولم يمض كثـير وقت حـتي استـيقظت الزوجـة وفـرشت الأرض ثم جاءت بالشـاى وبعض من قطع الخبز الناشف، جلس على طرف الفراش وظل ينظر إليها كأنما أراد أن يفهم ماذا سيكون رد فعلها إذا لم يتمكن من نقل الطفل للتحليل ولكـنها انشغلت بإعداد الشـاى، وفجأة طُرق باب الدار فنهض مـحمـد وإذا به أحـد أقاربه ولم يعـرف لماذا جاء فى هذا الصباح البـاكر إلا أنه دعاه لتناول الشاى لكن هذا كان فى عـجلة من أمره وقد ناول مـحمد مبلغـا من المال ثمنا لخروف كـان قد اشتراه منه، فنطر إليـه مليا وهو يشكر الله قائلا فى نفسه حقيقـة (يرزقكم من حيث لا تحتـبون) عاد إلى مكانه مـسـتبشرا وقد تجـهز الطفل وسار مع أبيه إلى الـعيادة فى القرية وهى عبارة عن مبنى صغير فى شكل مستطيل به حجرات متقابلة وبـكل حجرة طبيب وبعض الممرضـين أو الممرضات، وجلس على كرسى خشب مـسـتطيل يجلس عليه عدد من الناس وقبل أن يدخل على الطبـيب طلب منه أن يدفع نصف دينار كى يحـصل على نمـوذج الكشف الطـبى، دفع المـبلغ ورجع إلى مكانه على الكرسى المـستطيـل ونظرا لطول الوقت فى الانتظار فقـد كان الناس يتبادلون الأحـاديث فى مختلف الأمـور، وكان

أغلب الحديث منصبا على مصاريف الدراسة لأنها اوشكت على البدء وستفتح المدارس قريبا، كانوا يتحدثون عن ثمن الكراسات والأقلام والحقائب وكيف أنها ثمنها غالى جدا . .

قال أحدهم، تصوروا أن الحقيبة المصنوعة من قماش ردئ جدا ثمنها عشرة دينارات !!

وقال آخر . .

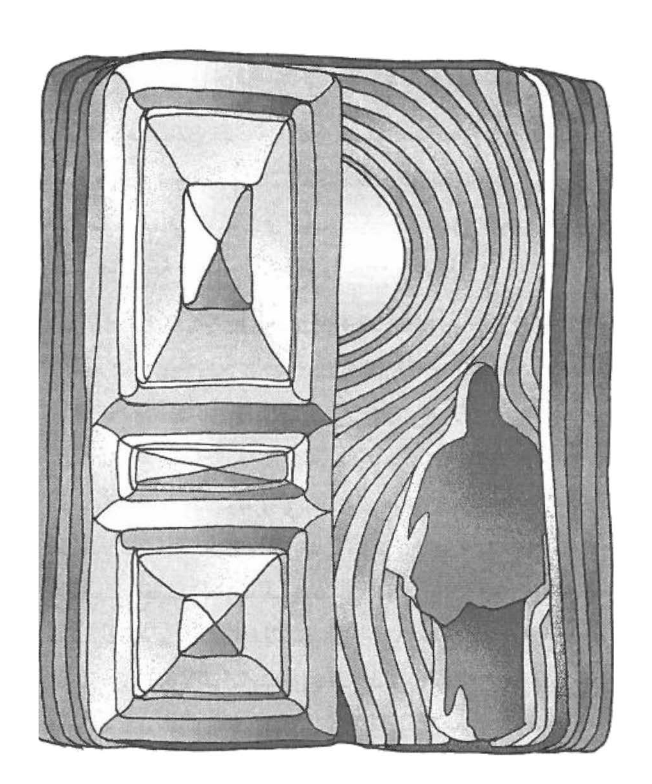
من الغريب أن ليبيا عندما كانت فقيرة كان كل شئ متوفر ورخيص وكانت الدراسة مجانية وكذلك الكتب بل أن الحكومة كانت تدفع مكافاءات شهرية لطلبة الجامعة أما الآن وقد حبانا الله بكل خيرات الأرض فإننا نعيش فى مستوى الشحاذين !! لا المرتبات تدفع فى مواعيدها ولا علاوات أو ترقيات ولا شئ ! يقلّب شفتيه ويهز رأسه يمنة ويسرة فى أسى بالغ وتعجب، وبعدئذ يواصل الحديث، ليس الدفاتر والشنط فقط وإنما سوف يطلب من الطلبة تجميع المال اللازم لصيانة وتصليح النوافذ وغيرها وفصل الشتاء على الأبواب وسوف يطلبون كذلك من التلاميذ جمع الأموال لشراء الدفايات ولم يبق إلا أن يقولوا ادفعوا ثمن الكهرباء والمياه !!

لم يقل محمد شيئا ولكنه كان يصيخ السمع لأن هذا

الكلام يسمعه المرء اينما حل وبلا تحفظ وهذا يعنى أن المسألة ليست كذبا أو ادعاء أو أقوال مغرضة وإنما هو واقع لامس حياة الناس جميعا، وكان يفكر فى ما سيقول للفقى مصباح عند زيارته، هل يردد نفس هذا الذى يسمعه وبالتالى يزيد المسكين ألما وحسرة وتكدر، كان المكان يعج بالذباب والتراب يغطى الأرض فقال فى نفسه ترى كيف يمكن أن تعمل المعدات الطبية التى يقال أنها تحتاج الاهتمام والنظافة والعناية؟

جاء دوره فدخل على الطبيب الذى لم يكن عربيا وقد تفاهم معه بصعوبة بالغة إذ أنه ينطق كلمات عربية مخلوطة باعجمية كالقول (التفل مريض) (التفل ايان كيف؟) أى الطفل مريض وعيان كيف؟

اعطاه وصفة دواء وهى عادة أنواع من الحبوب تعطى لكل مريض مهما كان نوع مرضه ومع ذلك لم يجد بعضها فى الصيدلية فقيل له أنها موجودة فى الصيدليات الخاصة وهذه مصيبة أخرى لأنه قد لا يجد لديه ما يكفى لشراء هذا الدواء اضافة إلى إنه لابد أن يشترى بعض لوازم البيت وربما قليلا من الفواكه لأن الطفل مصاب بفقر دم كما قيل له، تنهد وقال، فقر فى كل شئ ! حتى فى الدم، الحمد لله.



(٧)

على الرغم من قناعتــه الكاملة أن الطريق الذى سلكه أخاه لا عودة منه وأنه مـؤدى إلى الهلاك فقـد كانت تنتابه عـدة عوامل ورغبات ويدفعه واجب النصح إلى أن يحاول مرة أخرى أومرات أخر، وهو يدرك أن تلك الشيطانة الـتى يثير تصرفها الاشـمئزاز عديمة الأخلاق والتى تمثل كـومة من الرذيلة وقناطر من الفساد ربما كانت سبب كل الذى حدث لأخيه وان كان يحمل بالتأكيد بذرة الشر فى داخله، فقـد رأى أن يذهب إليه على أمل أن يثنيه عن غيه وطيشه..

صحى مبكرا من أجل أن يلحق بأول سيارة أجـرة متجهة إلى طرابلس حيث يـمكنه بعد ذاك أن يعود إلى القـرية قبل انقـضاء النهـار لأنه ليس له مكان أن ينام فيـه إذا ما خـيم الليل وهو لا يفكر اطلاقا فى أن ينام تحـت سقف بيت شقيـقه ذاك لأنه يرى أن كل ما فيه حرام وربما لا تجوز حتى الصلاة فيه..

وكان عليه أن يقطع المسافة بين محطة سيارات الأجرة ومكان بيت أخيه سيرا على الأقدام ذلك أن سيارات الأجرة فى المدينة إذا صح أن تسمى سـيارات أجرة لأنهـا عبـارة عن علب صدئة قذرةمتحركـة يقودها غاليا أوغاد لا هم لهم إلا غش الراكب إذا

كان غريبا، ولهذا فهم يطلبون خمسة دينارات عن أقصر رحلة في المدينة ولا يمكن لأحد أن يشتكي إذ لا يوجد ما يمنع هؤلاء من الغش وزيادة التسعيرة فلا قانون ولا لوائح وإن وجد شيء من ذلك فانه لا يوجد من يمكن أن ينفذه.

بعد نصف ساعة من السير وصل بيت شقيقه وعندما طرق الباب عدة مرات وانتظر لبعض الوقت فتحت امرأة قصيرة بدينة ترتدى جلبابا طويلا شعرها أسود أكرد غير منظم ويداها خشنتان وكانت حافية القدمين ويظهر أثر النعاس فى عينيها الصغيرتين الذابلتين، فتحت الباب وتفحصته باستغراب وقالت.. ماذا تريد فى هذا الوقت؟ وكانت تنظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه..

قال أبحث عن أخى..

وبعد عدة أسئلة قالت (موش هنا) وحاولت أن تغلق الباب ولكنه ألح عليها لأنه جاء لأمر هام يخص أخيه، ولم يسألها من تكون لأنه اعتقد أنها ربما خادمة إذ أن موضة أهل المدن أن تكون لديهم خادمة أو خادم وأحيان أكثر من واحدة أو واحد فى البيت.. ولا يهم ماذا يحدث من هؤلاء!!

أجابته أن أخاك قد انتقل إلى بيت آخر جديد وإنها والدة زوجته اسكنوها هذا البيت لأنهم استغنوا عنه إذ انتقلوا إلى بيت أكبر.. وأضافت وهى تضغط على شفتيها السفلى، إنك يمكن

أن تسأل عنه فى منطقة تسمى (غرغور) قالت هذه الكلمة ممطوطة (غر غووورر) قرب طريق المطار، ومع ابتسامة هزء أضافت، هل تعرف المطار؟ أغلقت الباب بشدة كأنما هى تصفعه على وجهه..

قال أعوذ بالله من هذه الشمطاء، أين غرغور هذا وكيف يمكن الوصول إليه؟

سأل فقيل له إن المكان بعيد ولابد له من سيارة أجرة..

الأمر لله، لابد له أن يذهب بالتاكسى فلا يمكن أن يعود أدراجه قبل أن يرى شقيقه، ورغم أنه دفع ثمانية جنيهات أو هى دينارات للسائق فقد أنزله هذا فى المنطقة دون أن ينتظره..

وجعل يسأل عن أخيه وكان الوقت ظهرا وأصابه بعض التعب ولم يكن فى المنطقة فيما يظهر جامع كأنما هى منطقة أجانب غير مسلمين، فقد بدأ ينظر إلى أعال رؤوس المبانى عله يرى مئذنة حيث فكر فى أداء صلاة الظهر، وبعد فترة من اللف وجد من يدله على بيت الأستاذ.. صار هذا أستاذا بقدرة قادر وهو يعرف أن أخاه لم يكمل حتى مرحلة الدراسة الإعدادية، لا بأس، لابد أن للوظيفة أو السلطة بهرجها وطقوسها، كان البيت مهيبا ويتكون من دورين وهو محاط بسور مرتفع، تصور محمد أن حجارة السور تكفى لبناء ثلاثة بيوت فى القرية، تطل من فوقه

رؤوس الأشـجار المـختلفـة الألوان، وقف أمـام الباب وجـلا لبعض الوقت ولكنه أخيرا ضغط على زر أبيض فى لوحة بيضاء لامعة، وفجأة أضيئت اللوحة وجاءه صوت لم يفهمه في بادىء الأمر، الصوت بلكنة مصرية (ميييين) تردد عدة مرات ثم قال، أنا، كانت صـورته ظاهرة فى الداخل لأنه فيما عـرف بعدئذ أن اللوحة التى أضيئت تظهر الصـورة على شاشة داخل البيت قالوا له أنها (كامـيرا) جاءت امرأة فى مـقتبل العمر ذات شـعر أسود طويل منساب وبشـرة قمحيـة مربوعة القد، نظرت إليـه قبل أن تسأله،كان يرتدى ملابـس وطنية ويتلفع بجرد أبيض وعلى رأسه طاقية بيضاء وفى قدميه نعلين صناعة محلية (بَلْغَةٍ)..

سألته، من أنت وماذا تريد؟

قال لها اسمه وأضاف، أنا شقيق الأستاذ..

فأجابت، تقصد (البيه)..

فكر قليلا، فى منتـصف الشارع قالوا أنه أستـاذ وأمام البيت صار بيها!!

قال، ايوه..

أجاب موش موجود، والسـت فى الحمام، قال انه سينتظر..

أجابت، انتظر حتى أسأل الـست، قفلت الباب فى وجهه..

وبعد فترة عادت وأدخلته ولكن قالت له اجلس فى الصالون الصغير إلى أن تخرج الست، تركته ولم تعد إليه إلا بعد مضى بعض الوقت، جاءت لتدخله إلى الصالون الكبير لأن الست خرجت من الحمام..

عندما دخل كانت جالسة وهى تحك أظافر أصابعها بشىء كالمبرد الصغير، وقفت وقد وضعت قبضتها اليمنى على خصرها وظهر عليها الاهتياج وهى تقول.. لعلك جئت لتعطينا درسا فى الأخلاق؟ ولم ترحب به ولا حتى دعته للجلوس، كانت واقفة وهى ترتدى فستانا من الحرير بألوان زاهية طويل تعلوه بقع حمراء، ويتدلى من نصفه حزام مزركش، عيناها سوداوان بهما غموض شديد تَنْصّران من الجانبين عندما تتكلم، امرأة عادية جدا وإن كانت تحاول التأنق والتزيّن لا لجمال فيها، تكثر من العطور وتبالغ فى الطلاء بغير فهم، لم تكلف نفسها حتى مد يدها إليه، نظراتها تشف عن المكر والطيش والرغبة، وكان يعرف أن شقيقه منقاد إليها بشدة وينفذ جميع رغباتها ولا كلمة له عليها لأنها ربما كانت سبب ما يسميه نعمة ورفاهية..

نظر حواليه فرأى أثاثاً فخماً وأجهزة كثيرة ولكن بلا ذوق أو ترتيب، الأجهزة متكدسة ويظهر أن أغلبها لا يستعمل وربما كانت هدايا، قال لها أنه سوف ينتظر أخاه مهما تأخر عن

المجيء وإنها قد لا ترى وجهــه مرة أخرى بعد هذه الزيارة التى يعتقد أنها ستكون مشؤومة . .

بصوت خافت قالت، أحــن

خرجت وتركته فى الصالون

لم يقــدم إليه أى شىء ولا جــاءه أحد إلى أن وصل شــقيــقه فجأة وقد جــاء من داخل البيت، وكان معه شخــص آخر متأنق بحمل فى يده عــصاة منقوشــة بخطوط فضيــة لم ينظر إليه أبدا ولقد كــان شقــيقــه يتبع ذلك الضــيف وكان يرتدى بذلة لامــعة ويضع سيجارا فخما بين شــفتيه وحاول أن يتكلم من أنفه عندما قال أهلا دون أن يمد يده، جاءت بعده زوجته وصارت تتحدث همسا مع الضيف ولاحظ أنهما ينافقان هذا الضيف ويهللآن لما يقول همــا ويبتسمان باستمرار وتكلف واضح . .

كان محمد فى غاية الاستــياء ويكاد يفقد صبره واتزانه اللذين عرفــا عنه، وكانت تتــجاذبه مــختلف الأفكار والخــواطر، هل يبصق فى وجه هذا الوغد ويخرج من فــوره بعد أن يلعن ضــيفه المتــغطرس والذى ينفخ ريشه كالطاووس وزوجتــه التى ظهرت فى لباس فــاضح مزوّق كــأنها فى ملهى ليلى رخــيص، وكانت عيناه تلمعان وشفته السفلــى ترتعش وقد استخرج كلمات جافة بصعوبة بالغة إذ قال لأخيه، هل يمكن أن نتحدث على انفراد؟

فأجابه وهو ينظر فى عينى ذلك الضيف الثقيل..

لا أحد غريب، قل ما تشاء..

فأصرّ محمد على الإنفـراد بأخيه، وهنا قالت المرأة، اذهب معه إلى الصالون الآخر لأن لديه مـوعظة جاءك بها من القرية!! وقد نطقت كلمة قـرية ممطوطة وهى تزم شفيـتها هزءا، لم يرد عليهـا محمد بشئ وإنمـا تبع أخاه الذى نفذ كلام زوجـته على الفور، وهناك قـال، هه، ماذا تريد؟ دون أن يجلس وكـان قلقا وقد بسق التـبغ الذى علق بشفتـيه، قال محـمد، لم أكن أنوى زيارتكما مـرة ثانية لكن قلبى لم يطاوعنى لأننى سمعـت الكثير عنكما، فقاطعه شقيقه، من تعنى؟

فقال محمد، أنت وزوجتك، أنت وهذه المرأة..

وهنا صرخ أخاه، لا تنـسى أنهـا زوجتى ولا دخل لك بها أو بشئونها.

قـال محـمد، كـيف لا دخل لى وأنا على قـناعة بأنهـا هى السـبب وهى التى دفعت بك إلى هذا الطريق، طريـق الضلال المحفوف بالمخاطر، قـاطعه مرة ثانية، أنت جعلت من نفسك صوفيا وقاضيا وشرطيا فى وقت واحد وتريد أن تفرض سلوكك وأخلاقك على الناس، ينفث دخـان السيجـار، ويضيف، لأنك فشلت ولم تصل إلى ما وصلت إليه أنا..

فهـز هذا الكلام محـمد هزا عنيـفا وقـد انتفض واقـفا وهو يقـول، اللهم لا تجعل لى نصـيبـا فى الحرام، أنا أعـرف أنك رجل أحـمق إذا أمكن أن تـسـمى رجـلا وأنت تتـخـذ من هذه الثورية التى تبالغ فيها زلفا ونفاقا، تتخذ منها قناعا زائفا وتستغل الناس بها بحيث يخافونك وبحيـث تـستغل وضعك فى السـفر والسرقة، إن جـموحك واتباع طريق زوجتك سـيؤديان بك إلى التهلكة والندم حـيث لا ينفع الندم، رد بغطرسة، وفـر كلامك لأننى لـست فى حاجة إلى المواعظ وقل ماذا تريد. .

صار محمد يتضرع لأخيه وهو فى غاية الغضب والاستياء، يا أخى إنى أخاف عليك وأعرف أن المـال الحرام لا ينفع والظلم يؤدى إلى التهلكة والغطرسـة ندامة والسرقـة والرشوة نهايتهـما الـسـجن والعـار، قال، آوه. . بلاش هذه الاتـهامـات لأنك لا تملك دليلا واحدا ووفر علىّ الوقت لأننى مشغول وهناك ضيف ينتظرنى. .

نظر محـمد باسـتغراب. . ضـيف!! هذا الذى تتملـقانه هو بالتأكيد لص مثلكما، وعلى درجة من الارتشاء والـسمـرة، وهنا جاءت المرأة تتبختر، وباستهزاء قالت، يظهر أن الموعظة طويلة ومحاضرة الأخوة لا تنتهى؟ تقف فى وسط الصالون تهز وسطها كما لو كانت تتهيأ للرقص. .

لم ينتظر محمد ولا نظر إليـها ولكنه قال، انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.. وقد جذب الباب بقوة وهو يخرج..

ودّعته المرأة بنظرة حاقدة وقالت، مشية بلا رجعه..

خرج هائجا حانقا مشتت الفكر نادمـا على مجيئه، إذ ما كان أحراه أن يوفـر على نفسه مـشقّة المـجىء والتعب لأنه (لا تزر وازرة وزر أخرى) ويقـول المثل الـشعبى (كـل شاه معلّـقة مع كـراعهـا) ولا طائل من الحـديث مع من مـلأ جـوفه الحـرام ولطّخت يداه دمـاء الأبرياء.. وفى زيارته لطرابلـس لم ير فيـها إلا الكآبة بكل المقاييس،فهى مـدينة قذرة إذ أن القمامة تتكدس فى كل شارع وزاوية وتـنبعث منها الروائح الكـريهة، شوارعـها ومـيادينهـا مليـئـة بالناس الذين ينامـون على الأرض ومن كل الأجناس وخصـوصا أولئك الأفـارقة، فإذا كـانت هناك مناطق مزينة بالأشجار مـثل المنطقة التى انتقل إليها شقيقـه فهى مجرد مكيـاج على وجـه قبـيح،وقـد علم أن لهذه المـناطق أسـمـاء اصطلاحيـة يتندر بها العامة مـثل القول.. حى الدولار، وحى الاسـترلينى.. وهذا يدل على أن سـكان هذه المناطق من أهل الدولار أما أنهم من أهل المال أصـلا أو من القادمين الجدد أى المرتشين، الذين هبطت عليهم الأموال فجأة..

عندما فكر فى قريته وأولئك الناس الذين لا يملكون شيئا ترقرقت دمعة فى عينيه وما أصعب أن يبكى الرجال. . ! إلا أنه سرعان ما أفاق وانتحى بوجهه فى اتجاه آخر ليجفف الدمعة التى اغتصبت طريقها من خلال جفونه دون أن يعيها الشئ الذى جعل وجهه يحمرّ ربما خجلا من نفسه، أما أخاه ذلك الرعديد الذى ذهب إلى الجحيم وراء امرأة فاسقة تغوى المال فإنه كان يتعذب من أجله كلما خطر بباله ربما لصلة الرحم، كان فى طريقه إلى وكالة السيارات سيرا على الأقدام لم يبق لديه ما يكفى من نقود لأكتراء تاكسى ثم دفع أجرة النقل إلى قريته، وكان ينظر بانشداه فى كل شئ، أكداس القمامة والسيارات الواقفة أو المتوقفة، وجوه الناس الجلوس فى الميادين أولئك الذين يتزاحمون حول كل سيارة تقف عارضين خدماتهم، النسوة اللواتى يتسكعن فى الشوارع بمختلف الألبسة وفى كل مكان وبكل شكل ولون وقد سمع عنهن الكثير فى الفنادق والمقاهى وحانات شاطئ البحر وإن لم يكن قد رآها، لم يتناول أى شئ من الأكل طيلة فترة وجوده فى طرابلس فقد خرج من بيت شقيقه مطرودا غاضبا لم يدعوه أحد حتى لمجرد الجلوس، وسمع أن المدينة تفتقر إلى الماء الصالح للشرب مما يضيف مزيدا من المعاناة لغير أهل الدولار فى البلاد، الفقراء وصغار الموظفين، قال، حقيقة لعن الله الفقر وقد صدق سيدنا على بن

أبى طالب عندما قال، والله لو كـان الفقر رجلا لقتلتـه بسيفى، ثم استدرك وقال فى نفسـه،الفقر ولا رزق الحرام، ولكن لماذا الفقر فى بلادنا وهى غنية وقد حباها الله بكل الخيرات؟

وقد هزه من الأعـماق هذا التـساؤل، ماذا حـدث لليبـيين، يرقصون ويصفقون ويهزأون وينتـقدون!! يرقصون ويصفقون فى العلن ويهزأون وينتقدون فى السر!! لا يمكن أن يكون من يفعل هذا كـريم النفس أصيل المنبت مـؤمن مسلم، لأن المـؤمن لا يغتب، لا ينافق، وليس نماماً..

عـاد إلى قريتـه ووصل داره ليلا وهـذا يعنى أنه قضى يومـا كامـلا دون أن يأكل أو يشرب كمـا لو كان صائمـا وإن كان فى الصـوم أجر من عند الله، وصـل الدار خالى الوفـاض ذلك أن مثله لايفكر فى الهـدايا لأطفاله إذا جاء من غيـاب أو سفر لأن ذلك ترف ورفاهية لا يعرفها الفقراء وأكثر ما يمكن أن يفكر فيه هو ما إذا كـان فى البيت بعض الأكل، وقد يأتى ببعض الـخبز من السـوق أحيانا..

كان حزينا مـهموما ولكنه ما أن دخل الدار ووجـد ابنه بخير وزوجته حتى تغـير كل شئ ذلك أن الإنسان القنوع لايطلب إلا الصحـة من عند الله، فى تلك الليلة لم ينم إلا متأخـرا رغم ما أصابه من تعـب فى سفره إلى طرابلس ولم يكـن الألم والتعب

إلا نفسيا فهو بين أمرين متناقضين غريبين، كراهيته للفساد والطريق الذى سار فيه شقيقه وواجبه تجاه هذا الأخ العاق..

وفى تلك الليلة وزن الأمور وقلّبها على كل وجوهها وقر قراره على أن يقطع علاقته تماما بذلك الأخ مهما كانت الأسباب والظروف لأنه اقتنع بأن أخاه قد تورط فى أعمال خبيثة مجنونة قاسية آثمة وأنه لن يرى وجه تلك المرأة الشاذة المتبرجة مرة أخرى..

ولقد عزم على اطلاع الفقى مصباح على موقفه هذا ربما ليشهده على هذا الموضوع وبعد ذاك سيقول، اللهم إنى قد بلّغت..

صباح اليوم الثانى كان عليه أن يذهب إلى السوق لشراء لوازم المدرسة لابنه وكان هذا يلحّ فى طلبها رغم أن المدرسة لم تبدأ بعد ولكن الطفل يحب دائما أن يعد شنطته وبها الأقلام والكراسات، والشنطة لابد أن تكون ذات سيور بحيث يمكن حملها على ظهره، ومن يرى إلى عدد الكتب التى يحملها الطفل يعتقد أنها كتب مرحلة جامعية وليس ابتدائية أو إعدادية والسبب ربما يكون تلك الفوضى التى تعم المدارس والدراسة بحيث لا توضع جداول لحصص الدراسة وبالتالى يمكن للطالب أن يحمل كتب حصص اليوم الدراسى ذاك.

ذهب إلى السوق وكان هناك دكانا يبيع القرطاسية والكتب، الطفل يطلب أن تكون الشنطة بلون بنى مخطط وأن يكون غلاف الكراسات أخضر لأن السنة الفائتة قالوا له ذلك، وفى السنة الماضية كان ثمن الشنطة جنيهان فوجد أن ثمنها هذه السنة قد بلغ اثنى عشرة دينارا وثمن الكراس الواحد دينار ونصف الدينار وكان ثمنه عشرون قرشا، وكان الثمن كله، الشنطة والكراسات والأغلفة والأقلام خمسة وثلاثون دينارا ولم يكن قد بقي لديه غير أربعون دينارا ولابد أن يشترى منها بالاضافة إلى لوازم المدرسة بعض الخضار والفاكهة وسكر مع بعض الشاى، عد المبلغ عدة مرات وفكر كثيرا وهو يحك رأسه حتى أن القبعة قد وقعت على الأرض، ما العمل؟

لابد من الشنطة والكراسات لأنها لازمة ولأن الطفل كان مريضا وربما ينتكس إذا لم يأتى بها، قال لا بأس، نشترى لوازم المدرسة ونؤجل الفاكهة والخضراوات، لا أحد سيموت إذا لم يأكل فاكهة وهم نادرا ما يحصلون على شىء منها، كان فى ذهنه أنه ربما اشترى حذاء لنفسه ولكن ما باليد حيلة، يؤجل هو الآخر إلى وقت آخر قد يطول..

المدرسة أولا، بقيت بضعة قروش من المبلغ الذى كان لديه اشترى بها مصّاصّات وحبات حلوى للطفلة الصغيرة فهى لابد

أن تفرح أيضا، والحمدلله أن الذى يدرس الآن هو الطفل فقط، وهنا تذكر أن المدرسة ستشترط لباس خاص وحذاء جديد، لكن ذلك بعد أن تبدأ الدراسة ومن هنا إلى هناك يفرجهارب العباد، على أنه تساءل فى نفسه لماذا يتفنن هؤلاء الناس فى خلق المتاعب للفقراء وكأنهم لا يعيشون فى البلاد؟

فى طريق العودة طافت بذهنه أشياء وأفكار كثيرة، ما زالو مرض الطفل مرة أخرى؟ الزوجة فى الحقيقة لا تطلب شيئا ولكن الإنسان (عينه منظاره) فهو لم يشتر لها شيئا ولا حتى شبشب نايلون منذ مدة طويلة، الطفلة الصغيرة لاتطلب لأنها لاتعرف الآن وحبات حلوى تكفيها، ولكن ماذا فيما لو . . . فيما لو مرض أحد؟ هناك تكون المصيبة قد وقعت ولكن الله موجود والفرج دائما قريب والله مع الصابرين، ولكل عقدة حلاّل، أفكار كثيرة، ولكنه يؤمن بأن كل دابة على الأرض رزقها على الله، أشياء تبعث على الضحك والبكاء فى وقت واحد أحيانا، ولكن الله رحيم بعباده . .

ليس فى بيته الشئ الكثير من متاع الدنيا، سرير حديد مفرد عليه فراش محشو بالقطن وطاولة خشب متوسطة عليها راديو قديم يعمل بالبطارية الجافة يبقى متوقفا مدة طويلة عندما تفرغ البطارقة ولا يتوفر ثمنها، حصير مبسوط على الأرض، فى الدار

بعض الوسائد المحشوة بالصوف المقطع الذى لا يصلح للنسيج، ثلاث جرار لتبريد الماء وفى ركن خارج الدار ما يمكن أن يسمى مطبخا به فرن غار ذى رأسين قديم جدا وحنفية مياه بارزة من الحائط قرب المطبخ، وزريبة أغنام خارج سور الدار، قرب السرير هناك برواز من الخشب الأحمر معلّق يحمل كتابة بخط جميل (الله جل جلاله) وطاولة أخرى صغيرة عليها كتاب عتيق جدا هو القرآن الكريم غطاءه من جلد أحمر أصبح باهتا من كثرة الاستعمال، وقرب الطاولة صورة لأبنه مثبتة بشريط لاصق على الحائط..

وقد خطر بباله ذات يوم أن يبنى بنفسه حجرة صغيرة قبالة حجرته تكون للأطفال ولكنه لم يكملها وهى مازالت عبارة عن حيطان ارتفاعها حوالى مترين وبلا سقف يلعب فيها طفليه أحيانا، وهم يقاومون برودة الشتاء باستعمال الصوف ونار الحطب ولكن المشكلة دائما هى الصيف لأنه حار ليلا ونهارا..

هناك شجيرات حول الدار أهمها شجرة التين التى يجلسون تحت ظلها الوافر غالبا ويدورون عكس الشمس اتقاء الحرارة..

يدل مظهر الدار على الفاقة والعوز الشديدين لكن الحقيقة أن الحياة فى القرى متقاربة لأن أهل القرى لا يهتمون كثيرا بحياة

الرفاهية والدّعـة مثل أهل المدن، فلباسـهم يكاد يكون موحدا، جرد أبيض مصنوع من الصوف وقـميص وسروال مصنوعين من القمـاش الأبيض العادى وطاقـية بيضـاء وحذاء يـسـمى بَلْغَةِ أو سندل، وكذلك طعامهم وهم يعـملون طيلة أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمـعة حيث ترى أن المـساجد يؤمـها كل الناس فى هذا اليوم ويـلتقون مـساءاً وليـلاً فى الأفراح والمـآتم والمناسـبات الاجتماعية الأخرى ذلك أن مجتمع القرية مترابط وبسيط . .

زوجته ليست ذات مطالب ولا هى مهذارة أو مشاكسة بل هى امـرأة قنوعـة هادئة لا يكاد يـسـمع لهـا صوت ولا يذكـر أنهـا أزعجـته بأى طلب أو ألحت فى شئ إلا مرة واحدة عندمـا كان ابنها مريضا إذ كانت تلح فى علاجـه وذلك من الأمور الطبيعية جـدا بالنـسـبة لأى أم، جلست قـربة مـتـرددة وقد لاحظ أنهـا متوترة . .

فقال ماذا بك؟

أجابت، والدتى مريضة منذ أيام . .

فقطّب وقال فى داخله، مصيبة أخرى، ثم سألها

من قال ذلك؟

انتابتها خلجة ظهرت فى صوتها وهى تقول

أخى جاء أمس

وهل هى فى البيت؟

قالت، لا، أنها فى المستشفى

وهذا يعنى أنهـا فى مكان آخـر وهى ليست فى القرية، أجاب، وكيف نذهب إلى هناك وماذا.....؟

لكنه أضاف، بعد ما نشـرب الشاى يفرّج الله، وإن كان قلبه قد انقبض، فلابد من مبلغ آخر لأجـرة التاكسى وربما لشراء ما يمكن أن تأخذه الزوجة فى يدها أثناء الزيارة..

ومن سخريات القدر أنك ربمـا بالاضافة إلى شراء الأدوية أن تدفع مبلغ ما عند مدخل المستشفى إذا أردت عيادة أى مريضْ ولا يعرف المـرء مبررات هذا الاشتطاط فى زيادة الأعباء على الناس، وبطبيعة الحال فإن الذيـن يحسون بهذا هم الذين عرفوا الفقر ويعانون مرارة البـؤس والشقاء فى بلد غنى تُبدد ثروته بلا حساب والذين يعرفـون أيضا أن أصحـاب الواسطة والمناصب يعالجـون فى الخارج وينفقون مـئات الآلاف من الدولارات فى عـلاج أمراض ربمـا تكون بسيطـة، وقد حـدث أنهم أعلنوا عن مؤامرة ضـد الحكم قام بها أفراد واحدة من القبائل وكان بعض هؤلاء من ضباط الجيش، وما أكثر المؤامرات فى العالم الثالث بعضهـا حقيقى والبـعض الآخر يرتبه النظام نفسه للتخلص من

بعض الأقوياء أو المشكوك فى ولائهم،وقيل فى التحقيق مع واحد من أولئك الضباط أنهم قد صرفوا على علاجه فى الخارج مليون دولار ثم اتضح أنه خائن!!

هكذا قالوا والله وحده يعلم بحقائق الأمور، مليون دولار مبلغ يكفى لعلاج خمسمائة مواطن على الأقل فى الخارج!!

وفى هذه الأثناء زاره أحد أقاربه وفى تبادل الحديث اشتكى محمد حال أخاه وكيف أنه انحرف وصار لا يحلّل ولا يحرّم وأنه يقوم بأعمال لا ترضى الله ولا عباده، وكيف قابلته المرأة التى تزوجها وذلك السيجار الضخم الذى كان يضعه بين شفتيه حتى عندما كان يتكلم وغرابة الوضع فى بيته الفخم الملئ بالأثاث والمعدات الكهربائية وغيرها، وأنه يعتقد أن أخاه هذا قد اتبع نفس الأسلوب الذى سلكه أغلب الموظفين فى البلاد وهو الرشوة والاستغلال، وإن لم يكن الأمر كذلك فمن أين له كل تلك الأموال والبيت والذهب الذى تحمله زوجته والسفر الكثير، كان يتحدث بسرعة وتخرج الكلمات من فمه سريعة متداخلة وهو مضطرب وخجل لأنه ما أراد أن يقول مثل هذا الكلام عن أخيه ولكن ما باليد حيلة..

كان زائره يستمع وينظر باستغراب ثم قال، يا محمد انك تعيش بعقلية أخرى ربما فى زمن آخر، يأخى فى هذا الوقت

من لا يكون ذئبا أكلته الذئاب، وبمثل هذه العقلية سوف لن يستطيع أى إنسان أن يقضى مصلحة أو يحصل على شئ حتى لو كان بسيطا وحقا من حقوقه الشرعية ذلك إن كل شئ أصبح بالواسطة وبالمقابل. . سكت محمد بعض الوقت وكان ينظر مباشرة فى عينى محدثه الذى ما كان يتوقع منه مثل هذا الكلام الذى يقوله كما لو أنه موافق على ما يجرى، خصوصا أنه كان يراه دائما فى الجامع يؤدى الصلاة فى أوقاتها ويحمل مسبحة فى يده ويحافظ على لحيته التى يصففها على طريقة بعض الفقهاء، ثم قال ما هذا الهذر والتخريف؟ هل يمكن أن يكون جادا فيما يقول؟ وسأله، هل تدفع رشوة أنت كذلك لقضاء حاجتك؟ ثم أضاف قبل أن يسمع الرد، لعن الله الراشى والمرتشى، وقد وقف كمن لذغه عقرب وكأنه يطلب من زائره الانصراف ولم يفطن حتى إذا كان قد ودعه أم لا حيث وجد نفسه وحيدا عندما عاد إلى وعده إذ كانت الدنيا قد أظلمت فى وجهه، فقال، استغفر الله، ماذا حدث للناس. . ؟ وعندما زار محمد الفقى مصباح وجده مريضا وقد صار عاجزا حتى عن الوقوف وقد انكمش فى ركن تلك الحجرة القذرة التى يشاركه فيها آخرون، وعلى الرغم من المرض الذى أقعده فإن ذاكرته ماتزال قوية وتفكيره مرتّب صاف. .

فرح الفقى بالزيارة وإن كان قد تكدّر جدا عندما أبلغه محمد بحال أخاه وما حدث له فى الزيارة الأخيرة التى قام بها فى محاولة منه لإخراجه من وَهّدة الفساد والإنحراف، وقد سمع القصة كلها ثم رفع عينيه إلى السقف وتمتم ببضعة كلمات تبين منها محمد آيات قرآنية ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ وفى هذه الأثناء كان الفقى مصباح كما لو كان ينبش فى أعماق ذاكرته من أجل استذكار أحداث ماضيات، كان العرق يتصبب على وجهه ويقطر من خلال لحيته وهو يتنفس بصعوبة ومشقة إذ كان صدره يرتفع ويهبط بشدة، وصار كمن يحدّث نفسه لبعض الوقت وكان ينظر بوجل شديد محولا نظرة بين السقف ووجه زائره وكأنه يتوقع حدوث شئ مرعب ثم تأتأ قائلا المهم انك انت بخير..

فرد محمد أحمد الله ولكنى أرى أنك فى غاية المرض،أجاب الفقى، الحمدلله على كل شئ فهو الذى يعطى وهو الذى يأخذ، ولقد كنت واقفا كالشجرة الراسخة أمام هؤلاء الطغاة المتعجرفين عبدة المال، هؤلاء القوم الذين يؤثرون المال على الوطن وعلى الكرامة كأنهم ليسوا من هذا البلد ولا من صلب أولئك الرجال الذين عاشوا على الكفاف وجاهدوا فى سبيل الله وكانوا شرفاء انقياء لم تمتد أيديهم إلى مال حرام..

وها أنا كسير الجناح قعيد وموضوعًا فى مستشفى المجانين ومع ذلك سوف أموت كريما راضيا بمشيئة الله،وقد قدحت عيناه شررا وهو يتحدث بينما تهدّل دقنه وصارت شفتاه ترتعشان وتختلجان بشدة كأنما تيارا كهربائيا قد صدمه مما أرعب محمد إذ اعتقد أنه يلفظ أنفاسه وأن النهاية قد أزفّت فانهمرت من عينيه الدموع وعندما لاحظ الفقى ذلك قال لا تخشى يا بنى فلابد أن فى العمر بقية وأنا مثل الفراشة التى يحرق الضوء جمالها ويقتلها وهى تطير إليه ولا تدرى أنها تقتل نفسها، تقتل نفسها وهى تندفع نحو الضوء، ربما هى بذلك تبحث عن الحقيقة، عن شئ يبهر وإن كان قاتلا . .

وفى هذه الأثناء اقترب منهما أحد نزلاء هذا المشفى وهو رجل طويل القامة وجهه مستدير وعيناه واسعتان سوداوان حادتى النظر، شعره طويل أشيب مبعثر على مؤخرة رأسه، عريض المكنبين، عندما تقدم إليهما كان يمشى كما لو كان فى ميدان تدريب عسكرى، خطواته ثابتة كانت تتلاحق بانتظام وجسمه مستقيم متناسق وكان يرتدى كبقية المساجين أو المجانين لباس وطنى، وهو فى الستين من العمر فيما يظهر، شاربه مرتب كثيف ورأسه كبير، وجنتاه متوردتان أنفه معقوف يميل قليلا إلى اليمين، وتعابير وجهه صارمة الشئ الذى يجعل من ينظر إليه

يدرك أنه لا شك عسكرى قديم قضى ثلثى عمره فى الجندية، هكذا رآه محمد، وتلك هى حقيقة الرجل وإن كان يحمل درجة علمية عالية ويضع نظارة طبية على عينيه، جئ به إلى هذا المكان بسبب وشاية فقط وقد كان فى السجن مع بعض العسكريين إلا أنه أحيل إلى مستشفى المجانين لأنه كان يتحدث كثيرا وينتقد كل شئ، مد يده مصافحا محمد وكانت تلك هى المرة الأولى التى يصافح فيها محمد نزيلا فى هذا المكان غير الفقى مصباح..

وقال بكلمات متلاحقة سريعة إنه داوم على زيارة الفقى مصباح والتحدث إليه منذ عجز عن الخروج إلى المكان الذى اعتاد أن يجلس فيه،تحت ظل شجرة الزيتون الهرمة وأنه يرى أن هذا الفقى حكيما وصالحا ويتمنى أن يراه قد حصل على العلاج اللازم كى لا يموت، فرد الفقى بكلمات واهنة،الأعمار بيد الله وقد حاول أن يرفع يده لكنها لم تتحرك، بدأ هذا الرجل بلا مقدمات يتحدث كأنما هو يعرف محمد منذ أمد، أنه يتحدث بشكل محموم ويقول، منذ متى كانت بلادنا بهذا الشكل؟ لا يستطيع الإنسان أن يأمن مرور ليلة واحدة فى سلام، ومن ينظر إلى البيوت يرى أبوابها وشبابيكها الحديدية وحيطانها العالية جدا كأنما هى أسوار معسكرات جيش، ولا أحد يمكنه

أن يترك سيارته ولو لساعة واحدة خارج البيت ولا يطمئن على ابنته أو زوجته وهن ذاهبات أو آتيات من المدرسة أو من أى مكان، وأن بيوتنا جميعا مثل هذا المشفى!! لوح بيده، مستشفى المجانين هذا، سجن المجانين هذا، يشير إلى السور والحديد المثبت أعلاه..

ويضيف أما إننا جميعا مجانين أو جميعا سجناء.. ما هذه الحال؟ يضغط على أسنانه حتى برز حنكه من وجنته اليمنى.

كان محمد يستمع بلا مقاطعة لكلام الرجل الذى ألتقاه اليوم فقط، يستمع حائراً، ذلك أنه سمع أن أجهزة المخابرات اعتادت أن تدس بعض الناس فى مختلف المواقع، أما الفقى فقد كان وقتئذ مغمض العينين وقد هدأ نفسه حتى أن صدره لم يعد يرتفع ويهبط حتى لكأنه قد مات، وعندما توقف الزائر عن الكلام فتح عينيه وتنهد ثم أشار إليه أن يجلس لأنه يريد أن يتحدث معه، إلا أن الرجل لم يجلس وعندما توجه إلى الفقى بالحديث قائلا، يافقى أنت تتحدث عن النضال والاستقلال والثورة، أعنى كنت تتحدث، ونسيت عنصر هام يمكن أن يجعل لهذه الأمور قيمة وطنية وإنسانية ذلك هو الحريات والديموقراطية، انت كنت ترى الثورة كعصا سحرية تغير كل شئ وتصلح كل شئ ولم تفكر فى الناس، لم تفكر فى القائمين

بها وكنت ترى الشعارات فقط وتلك حالة كل المتفائلين الذين يحكّمون مشاعرهم، وإذا ما قارنا بين ما كانت عليه النظم العربية قبل هذه التى سميت ثورات لوجدناها كانت أحسن حالا ولنا أن نأخذ أى بلد عربى فى الشرق الأوسط مثلا لنرى الأمور كيف كانت وكيف صارت..

فقال محمد الذى كان يستمع فقط وقد اعتاد أن لا يتكلم كثيرا لشكوكه فى أغلب الناس.. قال، ولكن الفقى كان دائماً ينادى بالعدل والحرية وسيادة القانون والسبب الذى أدخله هذا المكان كان معروفا، فقد كان يجاهر بمحاربة الفساد والرشوة والسمرة والعمولات وكان دائما يحلم بذلك المجتمع الطاهر الذى كان يعاصره..

فرد الرجل، إنما أتحدث عن وقت ماض، ولقد فهمت من الفقى طيلة الفترة الماضية أشياء كثيرة وعرفت ما كان عليه الوطن العربى وما صار إليه منذ حرب فلسطين الأولى إذا صح أن تسمى حربا، بل إننى وإن لم أكن فى عمر الفقى قد وعيت الشئ الكثير منها، فإذا نظرنا إلى الانقلابات العسكرية وهى التى ترفع شعارات وتبالغ فى الاعلام وتهوّل فى الانجازات نرى فى الواقع والحقيقة أدوات تدمير وإفساد وليس أدوات إعمار وإصلاح، ونظرة واحدة إلى الوطن العربى، أعنى البلاد العربية

التى حكمها العسكر تريك حقيقة الوضع، فساد ورشوة وسمسرة ودكتاتورية وخراب ضمائر وبيوت، هؤلاء يفسدون البلاد باسم النضال ويضطهدون ويقتلون ويسجنون باسم الوحدة ويبددون أموال البلاد باسم الاشتراكية التى لا يعرفون إلا إسمها، وإذا نظرت إلى الاستقلال سترى أنه لم يكن هناك استقلال فى أغلب بلدان العالم الثالث لأن الاستقلال لكى يكون ناجزا لابد له من وعى وثقافة وتعليم وعقل، ونظرة واحدة إلى دول أفريقيا مثلا تريك إن جميعها قد دمرت نفسها وضيعت كل امكانياتها بعد الاستقلال أو باسم الاستقلال، حروب أهلية وتقاتل دائم وتدمير لكل العمل والانتاج، أو كل وسائل العمل والانتاج ولو كانت بدائية جدا، والنتيجة مجاعات وضياع بينما كانوا فى عهد الاستعمار أفضل حالا، أظنكم سمعتم أن أحد بلدان أفريقيا قد تصارعت فيه القوى القبيلية واحدة حاكمة والأخرى محكومة وكانوا يتحدثون عن نظامهم على اعتبار أنه ثورة ضد الأجنبى وفى ذلك التقاتل هلك أكثر من مليون إنسان، مليون مواطن قتل خلال شهر واحد فقط وذنب أولئك الناس الوحيد أنهم من القبيلة الأخرى!! ولولا المساعدات الدولية لهلك البقية الباقية، وها أنتم ترون أن المؤسسات الخيرية التى تسمى دولها استعمارية هى التى تقدم الغذاء والدواء لأمثال هؤلاء الناس!!

ولو أردنا أن نعدد الصـراعات والتقاتـل فى كل تلك البلدان لما كفانا أى وقت مهـما اتسع، أما فيما يتعلق بالنضـال العربى فها أنت ترى الهزائم المتتالية وترى أن إسرائيل قد سيطرت عسكريا واقـتصـاديا على الـوطن العربى كـله، وها نحن نرى أن هؤلاء الثوار إسماً يتمنون الحصول ولو على جزء من الذى كان لنا قبل سنة ١٩٤٨م، ورغم أن جمـال عبد الناصر قـد حاول أن يوّحد العرب فقد فشل ودخل أو أُدخل فى عدة حروب كانت جميعها خاسـرة وربما يمكن الـقول أنه العسـكرى الوحيد الـذى حقق بعض الانجـازات وربما أيضا يـكون ذلك بسبب ظروف مـصر نفسـها والحالة التى كانت عليـها فيمـا يتعلق بالتعليم والصـحة وملكية الأرض والتمثيل فى أجهزة الدولة إلخ، ولكن بعد وفاته عاد كل شئ إلى ما كـان عليه أو أسوأ، مما كان عليـه فى عهد البـاشوات والاقطاع، والسـبب فى ذلك انه لم يحـدث شئ فى مجـال الحريات العامـة، أى بناء الإنسـان الحـر والمؤمن الذى يشارك فى تقرير مصيره ومصيـر بلده بحرية حقيقية، وبلا خوف من الأجهـزة والقهـر وتوزيع التهم جـزافا، وبعـد عبد الـناصر انفجرت الخلافات العربيـة والحروب العربية، بين العرب كدول وبين العـرب فـى الدولة الواحـدة، ولك أن تنظـر إلى خـريطة العالم العربى من الصومال مـرورا باليمن فى الشرق إلى الجزائر

فى الغرب، يتـوقف قليلا، ثم يضـيف، ويحدث أن بعض هذه الانقلابات يحارب ما يـسميه شيوعية فـيضع الناس فى السجون والمعتـقلات والبعض الآخر بأسـماء أخرى حزبية أو قـبيلية أو غيـرها ويعقد المـحاكمات الصـورية تحت شعار الحـفاظ على الوطن والمنجـزات، وحقيـقة الأمر أنـه لا وطن ولا منجزات، وهناك من يرفع شعـار الإسلام والعودة إلـى الأصول ثم ينقلب على ما رفع من شـعارات إسلاميـة ويصير ينكل بالمـسلمين أو الإسلاميين سجنا وقتلا واعتقالا، وبسبب هذه الاجراءات تتكون عـصابات الاجـرام بحجـة حـماية النظـام ويستـغلون كل شئ ويعيثون فى الأرض فـسادا..

وعندما توقف عن الكلام كـان الفقى مصباح شـبه نائم فطلب أن ترفع وسادته بحـيث يصيـر مـستندا، فـقام محـمد بوضع تلك الوسادة البـالية تحت رأسـه ووضع تحتهـا البطانية القـديمة لكى تـسند رأس الفقى الذى سَرَّت برودة فى جـسمه ووهنت يداه وصار يرتعد وقارب بريق عينيه أن يختفى وبعد أن أسندوه بقى صامتا..

قال محمد مـخاطبا ذلك الرجل الذى نفث كل ما فى صـدره من حديث بـسرعة وفى تواصل، خاطبه محمد قائلا:

الحقيقة إن ما تقـوله قد حدث ولكن ربما لا يكون من العقل والمنطق أن نيأس من كل شئ، من كل الناس وكل الحكام، وإن

كان الوضع الغريب هو أنه بعد أكثر من نصف قرن يتبين للناس أن النظم التى كانت تسمى رجعية هى النظم المستقرة وهى الأحسن فى كل الجوانب خصوصا على المستوى المادى والمعيشى والأمنى للناس ذلك إنهم استفادوا من الاستقرار ومن العلاقات الوثيقة مع الغرب أما الذين تعلقوا بالوهم، وهم الماركسية ودولة العالم فقد فُجعوا مما حدث فى ذلك البلد وضاع عليهم كل شئ، الاستقرار والاقتصاد والتعليم والصحة، وصارت أرجلهم معلقة فى الهواء فى الوقت الحاضر ولابد أن الغرب سيحاسبهم على تلك المواقف حتى لو كانت هى جزء من الماضى وإن قدّموا آلاف الطلبات من الندم والتوبة وما يحد نحو يوغسلافيا الأن يؤكد هذا الاعتقاد وكذلك اليمن الذى كان يعرف بالجنوبى وبعض مناطق وبلدان أخرى فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، والمصيبة إن بعض هؤلاء الحكام مازالوا يكابرون ولم يعترفوا بالحقيقة ومتغيرات العالم الجديد وبالتالى سيكون الثمن فادحا..

فقال الفقى بصوت واهن جدا لابد للمبادئ من ثمن يدفع عاجلا أو آجلا والعاقل هو الذى لا يجعل ثمن تلك المبادئ بلاده كلها وشعبها.. ولكن الرجل الثانى قال، ها أنت مازلت تحلم وتتحدث عن المبادئ وأنا أعتقد أن تلك المبادئ النبيلة التى تحلم بها يا فقى مصباح لا توجد إلا فى رأسك أنت أو

هى فى السماء، أما الواقع،الواقع العربى فهو كارثة بكل المقاييس وبكل معناها وفى كل المجالات..

قال محمد،ما سمعته ورأيته يؤكد كلام هذا الرجل الذى يظهر من كلامه إنه جرّب مختلف صنوف الحياة والأعمال ولكن أنا أسأل، لماذا أنت هنا؟؟

فتبسم الرجل وقال، وما الذى جاء بالفقى مصباح إلى هنا وهو رجل صالح ومسالم ولا يقوم بأى عمل غير الدعاء لإصلاح شأن البلد؟ كلان مجنون فى اعتقاد أولئك الناس أو أغلب الناس الذين يعيشون خارج هذا المكان.. الذين يبيعون ويشترون ويتاجرون بكل شئ وفى كل شئ، بما فى ذلك الوطن، ألم تسمع أنهم تزاحموا على مكاتب التسجيل لترك بلادهم مقابل عشرة آلاف دولار وعُدوا بها!!؟ وإلى أين إلى بلاد تركها أهلها أنفسهم لعدم توفر سبل الحياة فيها ربما لنفس الأسباب التى ذكرناها، الفساد والرشوة والدكتاتورية والظلم، هل يمكن أن تقول لى كيف تسمى الذين يبيعون بلادهم بالوهم؟؟

قال محمد إن هؤلاء الذين قلت إنهم تزاحموا على مكاتب التسجيل من أجل بضعة دولارات هم أنفسهم الذين يصفقّون ويرقصون ويهللون لكل شئ ولكل عمل طائش!!

فقال الرجل، إن هؤلاء الذين يصفقّون ويرقصون هم أنفسهم الذين رقصوا لكل حاكم ولكل دولة وربما يكونوا أكثر الآن لأن بعض الناس الذين جاؤا من الخارج بحجة أنهم من أصل ليبى وما كانت ليبيا تعنيهم فى شئ على الاطلاق لو لم يكن فيها نفط وفرص عمل أو قل فرص سرقة ونهب، وبعض هؤلاء ليس لهم أصول أو جذور وبالتالى لا يهمهم شئ مثلهم مثل أولئك الذين يغزون أى بلد فينهبون ما فيه بلا خجل لأنهم لا يرتبطون بذلك البلد ولا يهمهم أمره، وهنا حرك الفقى مصباح يده اليمنى وقد ارتفعت سبابته فقط فانتظر زواره ما سيقول..

وبعد بعض الوقت قال، مازلت أعتقد أن صاحب الشأن لا يمكن أن يترك الأمور لمدة أطول لأن الوقت قد أزف لكى يضع حدا ويعيد المياه إلى مجاريها، وفى رأى إن ذلك سهل عليه..

فتبادل النظر ذلك الرجل مع محمد وكان يهز رأسه بشدة واستغراب. صاحب الشأن، صاحب الشأن، أى شأن هذا؟؟

بعد ذاك أغمض الفقى عيناه وغاب عن الوعى وقد أصيب محمد بالذهول لأنه اعتقد أن الفقى قد فارق الحياة ولما لمس يده وجد أنها جافة باردة كعظم قديم فحاول أن يوجهه تجاه القبلة إلا أن الرجل الثانى قد وضع يده على صدر الفقى ليتحسس نبضه فوجد أنه مازال على قيد الحياة وكان عليهما أن يبلغا إدارة المشفى وطلب الطبيب ولكن المسئول الذى أبلغوه

أمر الفقى هز رأسه وقال، هذا العجوز بسبعة أرواح فلا تخافوا ولو كان قد مات لراح واستراح، ولم يول الأمر أى اهتمام بل طلب منهما تركه على حاله..

كان الفقى فى غيبوبته تلك قد رأى أشياء وأحداث وعالم آخر فقد أعاد صاحب الشأن النظر فى الأمر وحدث أن اللجان قد حلت محلها أجهزة رسمية برجالها المتحمسين الصادقين وساد النظام والقانون البلاد وحلت شريعة الله فى الأرض إذ عم العدل والرخاء وتراصت الصفوف من أجل البناء وقد تغير كل شئ وبقى أولئك الذين استغلوا وسرقوا وارتشوا فى انتظار العقاب، عقاب القانون بالنسبة للأحياء وعقاب الله بالنسبة للأموات، وعقاب الضمير بالنسبة لأولئك الذين تمكنوا من الهروب خارج البلاد، ومنهم من مات كمدا وحسرة وغيضا، ولقد صدق الله العظيم فى محكم آياته:

﴿ والذين يأكلون الربوا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس.. ﴾ (سورة سونس - ٨ -٩).

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقد صدر العفو عن كل الناس الذين سجنوا أو الذين خرجوا من البلاد لأى سبب فيما عدا أولئك الذين استغلوا أو بددوا ثروة البلاد، والذى قال فيهم المولى: وترى كثيرا منها يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون.. وقال فيهم كذلك:

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة - ٣٤)

وعندما تم الإفراج عن مساجين مستشفى المجانين أو أولئك الذين اعتبروا مجانين خرجوا حاملين الفقى مصباح على الأكتاف هاتفين الله أكبر وعاش الفقى المؤمن الطاهر الذى كان دائما يبعث الأمل فى نفوسنا بما يقرأ من كتاب الله وما يتحدّث به من حكمة ومواعظ..

وكان الرجل شبه ميت ويكاد بريق عينيه إن ينطفى وربما سيتوقف قلبه عن الخفقان وقد صار جسمه صغيرا منكمشا كأنه طفل صغير ومع ذلك ظهرت ابتسامة على محياه كأنها البرق واضفت على وجهه هدوئا كأنما هو ينام نوما طبيعيا وإذا كانت يداه قد وهنتا واصابتهما ارتعاشة فإن عصاته التى صنعت من عود زيتون مازالت فى مقبض يده اليمنى، وقد أخرج كلمات متقطعة حيث قرأ:

قال ربى إنى وهن العظم منى واشـتعل الرأس شيـبا ولـم أكن بدعائك رب شقيا. . والحمدلله رب العالمين. .

ثم أضاف أطال الله عمر صـاحب الشأن. . الذى صنع الثورة وأتاح الفرصة للناس وعندما أعـوّج الحال أصلحه بلا إراقة دماء أو آلام، وهكذا أخذت القافلة طريقها إلى التقدم.

ومـا بعث الأمل من جـديد أن صـاحب الشـأن أن وجـد التجربة قد سـبقت وقتها وهكذا كانت العثـرات والأخطاء كثيرة ولابد من تهيئة الظروف وإن طال الزمن لأنجـاح مشروعة ولهذا وضع حـدأ وموعـد التصـحيح والأخـطاء وقيـادة الـسفـينة فى الاتجاه الذى كان يهـدف إليه منذ البداية ولابد أن تتضافـر معه جهود كل المخلصين . . ولقد تحققت بنوءة الفقى مصباح .

وتكاتنت الجهود وبدأت مـسيرة الخير . .

النهاية . . .

كتب صدرت للمؤلف

١ - المسطرة الحاسبة سنة ١٩٦٦م

٢ - هندسة الراديو والتليفزيون سنة ١٩٦٧م

٣ - مستقبل التليفزيون الملوّن سنة ١٩٦٨م

٤ - مذكرات جندي في سيناء، ترجمة، سنة ١٩٦٨م

٥ - ثورة الادغال في أفريقيا، ترجمة، سنة ١٩٧٨م

٦ - نفط الشرق الأوسط وأزمة الطاقة في العالم، ترجمة، سنة ١٩٨١م

٧ - تاريخ المخابرات الإسرائيلية، ترجمة، سنة ١٩٩٠م.

٨ - مولد دولة أفريقية في الكونغو، ترجمة، سنة ١٩٨١م

٩ - عدوي نفسي، ترجمة، سنة ١٩٩٠م

١٠ - مذكرات ذو الفقار علي بوتو، ترجمة، سنة ١٩٩٣م

١١ - تدمير العراق بعد ١٣٩ يوما من المبادرات الدولية، ترجمة، ١٩٩٣م

١٢ - الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، ترجمة، سنة ١٩٩٩م

١٣ - حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربي، تأليف، سنة ١٩٩٣م

١٤ - قائد معركة القادة ومعارك القبلة، سالم بن عبدالنبي، تأليف، ١٩٩٣م

١٥ - تاريخ المسلمين في البوسنا والهرسك، ترجمة، سنة ٢٠٠٠م

١٦ - الجهاد الوطني أدب وتاريخ، تأليف، سنة ١٩٩٩م

١٧ - قبرص من معاوية إلي أجاويد، تأليف، سنة ٢٠٠٠م

١٨ - السودان بين ديمقراطية الشعب ودكتاتورية العسكر، تأليف، ٢٠٠٠م

١٩ - الفقي مصباح مؤذن الفجر، رواية، تأليف، سنة ٢٠٠٠م

٢١ - حرب الشرق الأوسط بين الحقيقة والخيال، تأليف، ١٩٦٧م

٢٢ - وثائق الوحدة لا وثائق أكتوبر، تأليف، سنة ١٩٧٩م

٢٣ - خرافة الستار الحديدي حول بلاد السوفييت، تأليف، ١٩٨٠م

٢٤ - الاتحاد السوفييتي نظرة من الداخل، تأليف، ١٩٨٥م

٢٥ - ليلة الحلم الطويل، رواية، تأليف، سنة ٢٠٠٤م

٢٦ - شهداء الكردون العشرة وروايات عن الجهاد، تأليف (٢٠٠١م)

٣٧ - مسافر يبحث عن الموت - رواية جزء ثاني تأليف (٢٠٠٣م)

٣٨ - الليبيون والثورة الجزائرية تأليف (٢٠٠٥م)

٢٩ - الانتفاضتان - حجارة من سجيل - تحت الإعداد.

٣٠ - رحلة في الصحافة خلال ثلاث عقود ١٩٦٠ - ١٩٩٠م - مخطوط.


تم بحمد الله

الفتى صلاح سوزان الفجر
في مستشفى المجانين

هذه الرواية

نظرة إلى الأحداث ومنها يعرف التاريخ ،والأحداث كثيرة طبيعية وغير طبيعية، انتصارات وهزائم، زلازل وبراكين ، أفراح وأحزان ، غروب وشروق ، جفاف وبروز واضمحلال ، تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

والثورة كل هذه الأحداث والإيجابي في هذه الأحداث يعتمد على التطبيق وعناصره إذا كانت جيدة جاء جيداً وإن كانت سيئة جاء سيئاً وهو الواقع الذي يتم على ضوئه الحكم، والأمم التي تحلل تلكم الأحداث هي التي تحتكم إلى التاريخ وهي التي تصنع أحداثه فيما بعد مثلما صنعت فيما قبل، وثورتنا جاءت بيضاء وقد نهجت طريقا ثالثا خلافا لما عرف العالم من قبل (الشيوعية والرأسمالية) ولأن الثورة تستهدف التغيير إلى الأفضل ونظريتها تحدد المنهج إلى الأفضل ، ولأن المؤلف يرى أن التطبيق قد خالف منهج النظرية ولأن أدوات التنفيذ والتطبيق كانت سيئة فقد انتقد تلك الأدوات وهو شئ لا يعيب النظرية ولا الثورة وإنما يخدمهما بإذن الله ، ويأمل أن يكون قد وفق فيما قصد ، ،